شوقي أبو خليل

عوامل النصر والهزيمة

عبر تاريخنا الإسلامي

دار الفكر


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

عوامل النصر والهزيمة
عبر تاريخنا الإسلامي

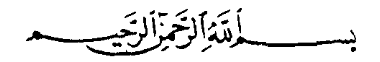
شوقي أبو خليل

عوامل النّصر والهزيمة

في

عبر تاريخنا الإسلاميّ

دار الفكر



الطبعة الأولى
١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م



دار الفكر : دمشق ـ شارع سعد الله الجابري ـ ص٠ب ٩٦٢
هاتف : ١١١٠٤١ ـ برقياً : فكر

إن أمة يتزاحم أبناؤها من أجل الشهادة
لا تعرف الهزيمة

سيف الله
خالد بن الوليد
رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

✶ « يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله : وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم . ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ، واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين » .

« الصف ١٠ ـ ١٣ »

* الحمد لله القائل : « وقاتلوا المشركينَ كافَّةً كما يقاتلونكم كافَّةً ، واعلموا أنَّ الله مع المتَّقين »[١] ، وصلى الله على إمام المجاهدين ، الذي جعل : « الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله »[٢] أفضل الأعمال ، وبعد ..

انتصارات أمتنا عبر تاريخها الطويل ، منذ عرفت ذاتيتها ، وجَمَّعت قواها ، واهتدت إلى سبيلها القويم الذي ارتضاه الله لها ، كانت ضمن أسس ومنهج محدد ، لا عشوائية ، ولا ارتجال في تحقيقها .

انتصارات أمتنا ليست نتيجة طفرة قوة ، انتزعَ صمامُ أمانها ، فكانت قوة دافقة كاسحة ، ثم خبت شيئاً فشيئاً حتى تلاشت .

---

(١) سورة التوبة ، الآية الكريمة : ٣٦ .

(٢) متفق عليه ، راجع البخاري ٥/١٠٥ ، ومسلم ٨٤ .

إن انتصاراتنا عبر التاريخ ، كانت وما زالت ضمن أسس محدّدة ، إن تحقق الالتصاق بها تحقق النصر ، وإن ابتعدت أمتنا عنها ، أو تسرّب خلل إلى تطبيقها والى أسسها كانت الهزيمة .

وهذا لا يعني أن الله لم يحقق بعض الانتصارات بمعجزة ، بخرق العوائد ، ولكنها ليست قاعدة تتبع .. إنها كانت في بدء نشوء هذه الأمة قبل استكمال قواها المادية ، إنها كانت توطيداً للنواة الطيبة التي لو هلكت ، لما عبد الله بحق بعدها .

في غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة ، كان النصر بمعجزة ، لأن الذين خرجوا إلى بدر ما خرجوا للجهاد ، لقد خرجوا لحرب اقتصادية ضد الوثنية المتمثلة في قريش ، لقد خرجوا لملاقاة عير لقريش ، ولما فرّت القافلة وفرض على المسلمين القتال ، كانت المعجزة : « إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّي مُمِدّكُم بألفٍ مِنَ الملائكة مُرْدِفين »[1] ، « ولقد نصركُمُ اللهُ ببدرٍ وأنتم أذِلّة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ، إذ تقولُ للمؤمنينَ ألَن يكفِيَكُم أن يُمِدّكُم ربُّكُم بثلاثةِ آلافٍ من الملائكةِ مُنزَلين ، بلى إن تصبِرُوا وتتّقوا ويأتوكم من فَوْرِهم هذا يُمدِدكم ربُّكم بخمسة آلافٍ من الملائكةِ مُسَوّمين »[2] .

في بدر .. ما كان الموقف ليحتمل انكسارا .. لقد ناشد النبي ربه قبيل المعركة قائلاً : « اللهم إن تَهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد »[3] ... فكانت المعجزة لتعلم الفئة المؤمنة أن الله معها حقاً وصدقاً ، وليكون النصر في بدر — أول لقاء مسلح مع الكفر — روحاً معنوية دافعة لتثبيت أركان الأمة المسلمة .

---

(١) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ٩ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية الكريمة : ١٢٣/١٢٤/١٢٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٩٦ . والسيرة الحلبية ، ج : ٢ ، ص : ١٧٣ .

ولكي تعي الفئة المؤمنة نفسها، أن للنصر أسباباً، وليست المعجزة دائمة الوقوع، وبخاصة عند تسرب خلل إلى استراتيجية الإسلام التي سنّها الله.

لكي يعي المؤمنون ذلك كانت أحد، هزيمة بعد نصر، لقد سلب النصر من بين أيدي المسلمين بعد أن شهدوا النصر بأم أعينهم، لتعلم هذه الأمة أن تأييد الله لها بقدر اتباعها لأوامره، وبقدر تطبيقها لمنهجه: « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولّوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُمِّلتم، وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين، وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »[1].

فليس النصر في الانتساب إلى الإسلام، إن النصر في تطبيق الإسلام.

وليس النصر مع أدعياء الإيمان، بل النصر مع التزام المؤمنين بما تمليه عليهم كلمة إيمان، وبما تحتويه كلمة إيمان من معان[2].

فأحد هزيمة ورسول الله بين جند الإسلام، لتعلم الفئة المؤمنة حتى قيام الساعة، أن لا نصر مع خرق قواعد النصر.

وفي حُنَين .. بعد أن دخل في نفوس المجاهدين العُجب بكثرتهم، وظهر ذلك بقولهم: « لن نُغْلَب اليوم عن قلة »، أراهم الله عز وجل أن هذه الكثرة لا تغني عنهم من الله شيئاً، فَهُزِموا، وتبيَّن لهم أن النصر ليس بكثرة العدد، وأكرم الله رسوله فثبته، وحقق له النصر، فكانت حفنة تراب أعظم من جيش، حين أراد لها الله أن تكون كذلك، فقد كفى المسلمين درس أحد.

---

(١) سورة النور، الآية الكريمة: ٥٤/٥٥.

(٢) لا توجد في القرآن الكريم سورة باسم « الهزائم »، ولا سورة خسارة الارض والاوطان، ودخول العدو في قلب البلاد، ولكن توجد سورة « النصر »، وسورة « الانفال »، وسورة الانفال اسمها يدل عليها، انها سورة القادة الذين لا يعرفون من المعارك الانهزام وتولية الادبار، ولكن يعرفون من المعارك النصر والغنائم، لا يعرفون هزيمة ولا فشلا ولا اخفاقا، بل يعرفون الانفال التي تتبع الفوز.

* إن تصفح التاريخ تصفح الدارس المتفحص ، الفاهم الواعي ، يوضح أن للنصر أسبابه ، وللهزيمة أسبابها ، وأن للنصر عوامل تحققه ، وللهزيمة عوامل تسببها ، للنصر نواميس ، وللهزيمة أسباب •

النصر يتحقق بأسباب لا تتبدل ولا تتغير في عرف الإسلام •

والانهزام يكون بأسباب مختلفة ، فكلما طرأ سبب يُبْعِدُ عن الأسباب الثابتة للنصر ، كانت الهزيمة • ففي اليرموك ، وفي القادسية ، وفي نهاوند ، وفي الزلاقة ، وفي حطين ، وفي عين جالوت •• كان النصر ضمن الأسس التي اختطها الإسلام •

وفي أحد ، وفي حنين ، وفي الجسر ، وفي بواتييه ، وفي العقاب •• كان الانهزام بسبب خلل طرأ على أسباب النصر التي ضمنها الإسلام •

وفتش كثيرون عن أسباب النصر •• فمن قائل إنها الصحراء ، صقلت أجسام العرب وجعلتهم أشداء البنية ، فانتصروا على أبناء الترف والنعيم في فارس والروم •

ومن قائل إنها أمة وحدت قواها وهي في منتهى الراحة ، فتغلبت على دولتين أتعبتهما كثرة الحروب ، وانهكهما طول الاقتتال •

وقالوا : إنه الجمل ، ذلك السلاح الجديد الذي دخل المعركة ، فأمن ربط الجبهات بمركز الخلافة ، وسهل وصول الامدادات •

ولو تجرد الباحث عن أسباب انتصارات هذه الأمة ، وتناول الموضوع بعيداً عن الأغراض التي تفرغ بعضهم لها ، ومن أهمها الدس والتشويه ، لو ترك أصحاب الأغراض أغراضهم الرخيصة، لوجدوا الجواب سهلاً واضحاً ، لا صعوبة في التفتيش عنه ، ولا غموض في ملامحه مطلقاً •

إن النهج الإسلامي الذي رسمه كلٌّ من القرآن الكريم ، والسنة النبوية

الشريفة ، ربَّى المسلم تربية جعلته لا يتشبث بروحه ، بل يجود بها لأنها غدت أمانة عنده ، بعد أن باعها لمن اشتراها منه بأجر معلوم :

« إن الله اشترى من المؤمنينَ أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلُون ويُقْتَلُون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيلِ والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » . [التوبة : ١١١] .

لذلك كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول لأعدائه : جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبّون الحياة ، إنهم أحبّوا الموت في سبيل الله لعظيم ثواب الشهيد ، مؤمنين بقوله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو في سبيل الله ، فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل »[١] .

وبهذا المعنى حدّد النبي أيضاً داء المستقبل فقال ﷺ : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق ، كما تداعى الأكلة على قصعتها ، قالوا : يارسول الله أمن قِلّة بنا يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ، ينزع المهابة من قلوب عدوّكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن ، قالوا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهية الموت »[٢] .

فإذا ما أحبت الأمة الحياة ، وكرهت الموت ، هانت الكرامة ، وكانت الهزيمة ، وعلا أسوارها أعداؤها .

روح المسلم في عرف الإسلام ليست ملكه ، إنها أمانة عنده ، وهو في كل لحظة على استعداد لبذلها لمن اشتراها .. وهذا ما يفسّر لنا الكثير من المواقف المدهشة ، والمواقف العظيمة التي سجلها المسلمون في فتوحاتهم ، والتي استقبلوا بها الموت بشوق وابتسامة ، كيف لا وهو ـ أي الموت ـ تحفة المؤمن ؟ فالشهادة في عرف المسلم الحق ، فوز بمنزلة عالية عظيمة لا تعلوها منزلة .

(١) متفق عليه .
(٢) مسند الامام أحمد بن حنبل : ٥/٢٧٨ .

وحب الشهادة ، نتيجة لتربية قويمة تجعل حب الله في الروح قبل كل حب : « قُلْ إن كان آباؤكم وأبنـاؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادَها ، ومساكن ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا حتى يأتيَ اللهُ بأمره ، والله لا يهدي القومَ الفاسقين » ، التوبة : ٢٤ .

« فتربَّصوا حتى يأتي اللهُ بأمره » أي : انتظروا عذاب الله وغضبه .

ونحن في القسم الأكبر من هذا الكتاب ، في صـدد الجهاد العسكري ، وما يحقق الهزيمة ، وما يحقق النصر .. وإن كانت الجوانب الإسلامية الأخرى لها علاقة وثيقة ومباشرة بأسس التربية عند الفرد المسلم ..

إن الجهاد العسكري في الإسلام هو الجهاد الأصغر ، والمعركة الكبرى في الإسلام جهاد النفس والهوى ، فمن انتصر على نفسه وهواه حقّق النصر الأكبر ، وهانت عليه نفسه في معركة الجهاد الأصغر .

ومن باع نفسه لله ، لا يقاتل إلا لله ، إلا لاعلاء كلمته في الأرض : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله » .

فلا قتال لغنيمة ، وعندما تكون الغنيمة هي الهدف ، تكون الهزيمة .

ولا قتال في قاموس الاسلام مع العجب بقوة بشرية : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى »[1] ، وعندما ينسى المجاهدون ربهم ، أو يغفلون عنه ، تكون النتيجة انهزاماً .

ولا قتال في منهج الإسلام مع فرقة الكلمة ، وتشتت الامكانات ، وانقسام الصف : «إن اللهَ يحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنَّهم بنيانٌ مرصوص»[2] .
ومُقَاتِلون يرافقهم تنازع وتفرّق كلمة ، هم منهزمون .

(١) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ١٧ .
(٢) سورة الصف ، الآية الكريمة : ٤ .

ولا قتال في منهج الإسلام مع عصبية ، أو قبلية ، أو عنصرية ، أو شعوبية ، فكل ذلك من سمات الجاهلية : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميةَ حميَّةَ الجاهليةِ ، فأنزل اللهُ سكينتَهُ على رسوله وعلى المؤمنين وألزَمَهُم كلمة التقوى وكانوا أحقَّ بها وأهلَها وكانَ اللهُ بكل شيء عليماً »[1] ، فقتال من أجل عصبية قبليَّة أو عنصرية جاهلية ، تكون النتائج : هزيمة .

ولا قتال في الإسلام مع ارتجال أو تواكل ، أو من غير اتيان الأسباب : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم »[2]. وقتال بلا أسباب ، قتال بلا إعْدَاد ، قتال ارتجال وتواكل ، تكون النتائج : منهزمون .

ولا قتال في الإسلام مع تفكير جندي واحد بالهزيمة أو بالفرار : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيِّزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »[3] .

وقتال بلا مؤمنين عقيدتهم : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، قل هل تربَّصون بنا إلا إحدى الحسنيين[4] ، ونحن نتربَّص بكم أن يصيبكم اللهُ بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا إنا معكم متربِّصون[5] » ، قتال تكون نتائجه هزائم .

ولا قتال ناجح ، وفي الجيش « منافقون » : « وإذا رأيتهم تُعْجِبُكَ أجسامُهم وإن يقولوا تسمعْ لقولهم كأنهم خشبٌ مُسَنَّدة ، يحسبون كُلَّ

---

(١) سورة الفتح ، الآية الكريمة : ٢٦ .
(٢) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ٦٠ .
(٣) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ١٥/١٦ .
(٤) احدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .
(٥) سورة التوبة ، الآية الكريمة : ٥١/٥٢ .

صيحة عليهم ، هُمُ العدوُّ فاحذرهم ، قاتلهم اللهُ أنّى يؤفكون »[1] ، فقتال مع بطانة سوء ، تكون النتائج : « منهزمون » .

ولا قتال في الإسلام بطراً ومفاخرة وزهواً أمام النـــاس : « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدّون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط »[2] ، بل قتال في سبيل الله وحده : « لِيُحِقَّ الحقَّ ويُبْطِلَ الباطلَ ولو كره المجرمون »[3] ، وقتال بطر ورئاء الناس تكون النتائج انهزاماً .

في الإسلام : « من المؤمنينَ رجالٌ صدقوا ماعاهدوا اللهَ عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا ، ليجزي اللهُ الصادقين بصدقهم ويعذبَ المنافقين إن شاءَ أو يتوبَ عليهم ، إنَّ اللهَ كان غفوراً رحيماً »[4] .

مقومات النصر التي قررها الإسلام في منهجه ، حملها الفاتحون المسلمون ، وعرفها العالم في خُلُقِ الفاتح المسلم لا تتبدل ولا تتغيَّر .

* بعث المقوقس عظيم مصر رُسُلاً إلى جيش عمرو بن العاص ، فأبقاهم عمرو عنده يومين وليلتين ، اطلعوا خلالها على حياة جند ربّاهم الإسلام ، وهيّأهم لفتح أرض الكنانة ، ولما عادت الرسل الى المقوقس سألهم : كيف رأيتم ؟ قالوا :

« رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التـراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون في صلاتهم »[5] .

فقال عند ذلك المقوقس : **« والذي يحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبـال لأزالوها ، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ! » .**

---

(١) سورة المنافقون ، الآية الكريمة : ٤ .
(٢) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ٤٧ .
(٣) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ٨ .
(٤) سورة الاحزاب ، الآية الكريمة : ٢٣/ ٢٤ .
(٥) النجوم الزاهرة ، جـ : ١ ، ص : ١٠/ ١١ .

* وبعد معركة « نهاوند » وانتصار المسلمين الرائع فيها بقيادة النعمان بن مقرّن المزني ، أرسل يزدجرد كسرى الفرس رسولاً يحمل هدايا إلى ملك الصين، يطلب منه العون والنجدة ، قال ملك الصين لرسول كسرى : قد عرفت أنّ حقاً على الملوك انجاد الملوك على مَنْ غلبَهم ، فَصِفْ لي صِفَةَ هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم ، فإني أراك تذكر قِلَّةً منهم وكثرة منكم ، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخيرٍ عندهم وشرٍّ فيكم .

فقال رسول يزدجرد : سلني عما أحببتَ .

ملك الصين : أيوفون بالعهد ؟

رسول يزدجرد : نعم .

ملك الصين : وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم ؟

رسول يزدجرد : يدعوننا إلى واحدة من ثلاث : إمَّا دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم ، أو الجزية والمنعة ، أو المنابذة .

ملك الصين : فكيف طاعتهم أمراءهم ؟

رسول يزدجرد : أطوعُ قوم لمرشدهم .

ملك الصين : فما يُحلِّون وما يُحرِّمون ؟ فأخبره رسول يزدجرد .

ملك الصين : **أيحرّمون ما حُلّل لهم ، أو يحلّون ما حرّم عليهم ؟**

رسول يزدجرد : **لا** .

ملك الصين : **فإنّ هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً حتى يُحلّوا حرامهم ، ويحرّموا حلالهم .**

ثم قال : أخبرني عن لباسهم ، فأخبره ، وعن مطاياهم ، فقال رسول يزدجرد : الخيل العِراب[1] ـ ووصَفَها .

---

(١) الخيل العراب : الكرائم السالمة من الهجنة .

ملك الصين : نعمت الحصون هذه . ثم وصف رسول يزدجرد لملك الصين الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها ، فقال ملك الصين : هذه صفة دوابّ طوال الأعناق .

ثم كتب ملك الصين كتاباً إلى يزدجرد جاء فيه : **إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوها : ولو خلي سربهم أزالوني ماداموا على ماوصف ، فسالمهم وارض منهم بالمساكنة ، ولا تهجهم مالم يهيجوك(١)** .

من هاتين الحادثتين تتجلى أهم أسباب انتصارات المسلمين ، وفي حديث ملك الصين تتضح أيضاً متى تبدأ الانهزامات : « فإن هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً حتى يحلوا حرامهم ، ويحرّموا حلالهم » .

مقوّمات النّصر

ويمكننا أن نقول ، إن أبرز مقومات النصر هي :

١ ـ **الاعداد قبل المعركة** : ويشمل اعداد الرجال روحياً وجسدياً ، واعداد السلاح .

لقد قدّس الإسلام أرض التدريب ، فجعل ميدان التدريب في المدينة المنورة أرضاً من الجنة ، يدخل إليها المتدرّبون حفاة ، وجعلَ الإسلامُ المؤمنين لا يعرفون ضياع الوقت ، فإما عمل أو عبادة أو تدرّب على الرمي ، أو ركوب الخيل ، وهذه هي الأسلحة المعروفة في حينه .

ويبدأ الانهزام العسكري بالانهزام الروحي والنفسي قبل المعركة . يبدأ بضعف الايمان ، وبالتالي الانهزام أمام الشهوات . ولهذا كان النبي ﷺ يقول بعد عودته من غزواته إلى المدينة المنورة : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، جهاد النفس والهوى » .

٢ ـ **معرفة قدرة العدو وامكاناته** : لقد أبقى النبي ﷺ العبّاس في مكة عيناً

(١) تاريخ الطبري ، ج : ٤ ، ص : ١٧٢/١٧٣ .

له على قريش وتحركاتها • كما استطاع ﷺ معرفة عدد جيش قريش في بدر من معرفة عدد ذبائحها اليومية •

وقبيل معركة القادسية دخل « طليحة الأسدي » جيش الفرس ، وبات فيه يجوسه ويتوسم ما فيه ، ولما عاد طليحة أخبر سعدَ بن أبي وقاص عن أحوال الفرس وأنهم مائة وعشرون ألفاً ، وأتباعهم مثلهم خدام لهم •

وأمة تقاتل عدوّها دون معرفة قدراته واستعداداته ، أمة أقرب الى الهزيمة منها الى النصر •

٣ ـ **التوجيه المعنوي :** تعطي دول العالم اليوم ٧٥٪ للمعنويات ، و٢٥٪ فقط للأمور المادية في جيوشها • لذلك ركّز الإسلام على الروح المعنوية من قبل• وجعل أتباعه يقولون لقائدهم ﷺ : « والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك » ••

تربية الإسلام الروحية ، هي التي جعلت الروح المعنوية عند المجاهدين في الأوج :

عمرو بن الجموح : صحابي أعرج عرجاً شديداً ، حارب في أحد ــ وهو معذور إن لم يجاهد ــ وهو يقول : سأدخل الجنة بعرجتي هذه •

سعد بن الربيع ، أرسل إليه النبي بعد أحد مَنْ يراه أفي الأحياء هو أمْ في الأموات ، فقال سعد : أنا في الأموات ، أبلغ رسولَ الله عنّي السّلام ، وقل له : إنّ سعدَ بنَ الربيع يقول لك : جزاك الله خير ماجزى نبياً عن أمته ، وأبلغ عني قومَكَ السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عُذْر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيكم ﷺ وفيكم عَيْنٌ تطرف •

البراء بن مالك بن النضر الأنصاري ، يوم اليمامة عندما اشتد القتال في الحديقة التي كان فيها مسيلمة الكذاب ، قال البراء : يا معشر المسلمين ألقوني

عليهم ، فاحتمل حتى إذا أشرف على الجدار المحيط بالحديقة فاقتحمه وقاتل على الباب حتى فتحه للمسلمين ، فجرح يومها بضعاً وثمانين جرحاً[1] .

في اليرموك .. كم منادٍ صاح قائلا : « من يبايع على الموت ؟! »

في نهاوند .. كان دعاء النعمان بن المقرّن المزني قائد المسلمين : « اللهم اعزز دينك ، وانصر عبادك ، واجعل النعمان أول شهيد اليوم ، اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام ، أمّنوا يرحمكم الله » .

خالد بن الوليد رضي الله عنه سمع قبيل بدء معركة اليرموك جندياً يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » . فقال خالد : « ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر (فرسه) براء .. وأنهم أضعفوا العدد » .

إن توجيه الإسلام وتربيته جعلت خالداً ينطق بهذا ، نطق المتيقّن مما يقول، ففي تربية الاسلام أصبح خالد لا يعادل ربع مليون من أعدائه ، لا .. بل فرَسُه الأشقر يعادل ربع مليون من أعدائه ، فما قيمة خالد إذن ؟ هل نقول : الملايين ؟! لا غرابة فشعب تربى على هدي الإسلام يكون بمثل هذه المعنويات ! .

لما سمع عبادة بن الصامت كلام المقوقس قبيل فتح مصر ، قال عبادة مجيباً : « قد سمعت مقالتك ، وإن فيمن خلّفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سواداً مني ، وأفظع منظراً ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني ، وأنا قد وليت وأدبر شبابي ، واني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً ، وكذلك أصحابي ، وذلك انما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه .. » .

ثم قال عبادة رضي الله عنه راداً على تهديدات المقوقس : « يا هذا ، لا تغرنّ

(١) استشهد رحمه الله عند فتح مدينة تستر في ايران ، تقدم نفر من المسلمين منه وقالوا : يا براء اقسم على ربك ليهزمنهم لنا ! فقال البراء : اللهم اهزمهم لنا واستشهدني ، فانهزم الفرس واستشهد البراء .

نفسك ولا أصحابك ، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وأنّا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ماقلتم حقاً فذلك والله أرغب مايكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند الله إذا قدمنا عليه ان قُتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته ، وما من شيء أقرّ لأعيننا ، ولا أحب إلينا من ذلك ، وانا منكم حينئذ على احدى الحسنيين ، إمّا أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا ، وانها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وان الله عز وجل قال لنا في كتابه : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » ، وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة،وألا يرده إلى بلده ، ولا إلى أرضه ، ولا الى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربّه أهله وولده ، وانما همنا ما أمامنا ... » .

هذه صور من الروح المعنوية عند المسلمين ، وهي روح في القمة لأن منبعها الإسلام والإيمان . وأمة معنويات جندها في القمة أمة لا بد منتصرة ، وأمة معنويات جندها منهارة ، أمة لن يغني سلاحها عنها شيئاً .

يقول الفيلد مارشال مونتغمري في كتابه (الحرب عبر التاريخ) : « أهم مميزات الجيوش الإسلامية لم تكمن في المعدات أو التسليح أو التنظيم ، بل كانت في الروح المعنوية العالية النابعة من قوة إيمانهم بالدعوة الاسلامية »[1] .

٤ ـ **سرّيّة التحركات والاستعدادات « التعمية على العدو »** : كان النبي ﷺ يتجه في بدء سيره إلى غزوة ما بعكس الجهة التي يريدها فعلاً . فقد يتجه شمالاً عند بدء المسير ، ولكنه سرعان ما يغير سيره باتجاه الجنوب نحو عدوه ، وماذلك إلا من قبيل التعتيم على العدو .

وكان يأمر ﷺ باغلاق الطرق أحياناً ، كي لا تصل أخباره الى العدو . قال

---

(١) « الحرب عبر التاريخ » للفيلد مارشال مونتغمري ، صفحة : ١٨٨ ، تعريب العميد فتحي عبد الله النمر .

عليه الصلاة والسلام عندما أمر بالتهيؤ لفتح مكة : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها (نفاجئها) في بلادها » •

والدول الكبرى اليوم تخوض حرباً غير منظورة ، هدفها سرقة أسرار أعدائها ، ومعرفة سلاحها الحديث ، وقدراتها ، واستعداداتها ، ومعنوياتها ، واقتصادها •• وأمة مكشوفة الأسرار لعدوها ، أمة مهزومة ، وأمة أقرب الى السرية والكتمان ، أقرب الى النصر •

٥ ـ **التحام القيادة مع الشعب :** كان النبي ﷺ قبيل غزواته يكرر : أشيروا علي أيها الناس •

هذا التحام بين القيادة والشعب جعلَ الجبهة الداخلية صفاً واحداً : « **إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** » • « الصف : ٤ »•

واستشار سعد جنده قبيل القادسية ، كيف لا •• وهو الذي رأى عُمَرَ يستشير الناس بشأن الجبهة الشرقية الفارسية ؟!

واستشار النعمان بن مقرّن المزني جنده قبيل معركة نهاوند •

وقالت رسل المقوقس إليه : « أميرهم كواحد منهم » ، وهذا مالمسته رسل كسرى وقائده رستم أيضاً ••

ولأهمية وحدة الصف ، جعل الله عز وجل سورة في القرآن العظيم عنوانها « الصف » ، أي الصف الواحد ، الذي وصفته آية في السورة نفسها : بالبنيان المرصوص •

فجبهة داخلية مفككة هي في انهزام داخلي قبل انهزامها العسكري الأكيد، وأمة هي بنيان مرصوص أقرب الى النصر منها الى الهزيمة •

٦ ـ **السلاح الوطني :** روى ابن ماجه في باب الجهاد : كانت بيد رسول الله ﷺ قوس عربية ، فرأى رجلاً بيده قوس فارسية ، فقال له النبي :

ارمها . عليك بالقوس العربية ، وهذا الحديث الشريف دليل قاطع على أن الإسلام يأمر بصنع السلاح بأرض المسلمين ، ولا يقبل باستيراده ، وهذا يثبته اليوم واقع الدول النامية التي تعتمد في تسليحها على سلاح مستورد من الدول الكبرى ، فان تحكّم هذه الدول في مقدّرات وامكانات الدول المستوردة للأسلحة تحكم جلي ، وشروطها في مبيعاتها واضحة في أكوام الأسلحة القديمة الدفاعية المنسقة .

فالسلاح الوطني من مقومات النصر الكبرى .

٧ ـ **متانة العقيدة ووضوحها** : إن وضوح العقيدة الإسلامية ، وبعدها عن الأسرار والتكتّم ، جعلها واضحة جلية في أذهان وقلوب أتباعها ، فالمنطلق واضح ، والهدف أوضح[١] .

كان الأعرابي يقاتل إما لثأر أو مغنم تحت لواء صنم القبيلة الخاص ، أما قال أبو سفيان بعد أحد : « اعل هبل ، اعل هبل » . أما تحت لواء الإسلام ، فصار المسلم يقاتل تحت عقيدة « الله رب العالمين » . وهذا جعل تجانساً في الفكر ، وتوحيداً في المنهج .. إذا قاموا الى الصلاة قاموا جميعاً ، وفي الليل لهم دوي كدوي النحل من تلاوة القرآن .. ولذلك جاءت إجابات رسل المسلمين الى أعدائهم دائماً واحدة متجانسة :

قال عبادة بن الصامت للمقوقس : «ليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ، ولا نجيبك إليها ، إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيّها شئت ، ولا تطمع نفسك في الباطل ، بذلك أمرني الأمير ــ أي عمرو بن العاص ــ وبها أمره أمير المؤمنين ــ أي عمر بن الخطاب ــ وهو عهد رسول الله ﷺ من قبله إلينا » .

هذه الكلمات تكررت ذاتها في الجبهة الفارسية ، وفي جبهة بلاد الشام ، وفي الأندلس ، وعلى أسوار الصين ، خصلة من ثلاث : إما الاسلام ، وإما الجزية ، وإما الحرب .

---

(١) « كان العرب ــ المسلمون ــ يندفعون نحو القتال ويحركهم أقوى دوافع الحرب ، الا وهو الايمان والعقيدة » . الفيلد مارشال مونتغمري ، « الحرب عبر التاريخ » ، ص : ١٨٩ .

هذه العقيدة التي جانست فكر المجاهدين من مبادئها : العزة ، والصبر ، والإخلاص ، والوفاء ، والقوة ، والحذر ، والثبات ، والإخاء ، والايثار ، واليقظة ... هذه العقيدة تمكنت من قلوب المجاهدين ، فجعلتهم لا يبالون أوقعوا على الموت ، أم وقع الموت عليهم .

فجيش عقيدته موحَّدة ، جيش متجانس فكرياً ، هدفه ثابت ، وسعيه مُوَحَّد .. وجيش تتخاطفه عقائد متعدِّدة ، جيش متفكك وهو قريب من الهزيمة ، بعيد عن النصر .

٨ ـ أهلية القيادة « أو القيادة المثلى » : كان علي كرم الله وجهه يقول : كنا في المعارك إذا حمي الوطيس واحمرت الحدق واشتد القتال كنا نتقي برسول الله ، ولم يكن أحد أقرب الى العدو منه ، لذلك قال بعض الصحابة : كان أشجعنا خلف رسول الله .

وعزيمة الصديق كانت جلية في حروب الردة .

واختيار عمر رضي الله عنه للقيادات عجيب ، ولم يكن ينظر الى صلاح الرجل في ذاته ، بل الى صلاحه للقيادة أو الامارة .

قال عمر لأصحابه : دلوني على رجل أستعمله على أمر قد أهمني ، قالوا : فلان ، قال : لا حاجة لنا فيه ، قالوا : فمن تريد ؟ قال : أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم ، قالوا : ما نعرف هذه الصفة إلا في الربيع بن زياد الحارثي ، قال : صدقتم فولاه .

وأمر عمر رضي الله عنه بكتابة عهد لرجل قد ولاه ، فبينما الكاتب يكتب جاء صبي فجلس في حجر عمر فلاطفه ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين لي عشرة أولاد مثله ، مادنا أحد منهم مني ، قال عمر : فما ذنبي إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء ، ثم قال : مزّق الكتاب ، فانه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟

لقد اختار رضي الله عنه سعد بن أبي وقاص للقادسية ، فحقق النصر .

واختار النعمان لنهاوند ، فكان أول الأسنة عند لقاء العدو ، وحقق النصر .

ومع هذا التخير كانت تعليماته لا تنقطع للقادة والأمراء ، مع مكتب خاص يتتبع أخبار الجميع .

ومتصفح تاريخنا الإسلامي يرى كيف كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يباشر الحرب بنفسه . وكذلك طارق بن زياد ، وورد عن نور الدين الشهيد أنه : « كان معنياً بمصالح العباد ، مداوماً على الجهاد ، يباشر القتال بنفسه » .

هذه أمثلة ليست للحصر ، والقيادة المثلى سبب هام في تحقيق النصر[1] .

٩ ـ عدم القتال لدنيا : المقاتل كان يقاتل لله ، للعقيدة خالصة ، لذلك كانت الغنائم محرمة ، لقد كانت تحرق ، ليبقى قلب المجاهد مع الله وحده . ولما ربيت هذه الأمة التربية المثالية عاشت لله ، فالغنائم لم تعد تزلزل مواقفهم عن مواطن الجهاد ، فأعطيت ثواب الآخرة ، وزيادة على ذلك غنائم الدنيا لتحصيل حاصل بعد المعركة ، لذلك إن مالت النفوس إلى الغنائم تكون الهزائم .

وإن أصبح القتال لدنيا لا لنشر عقيدة ارتضاها الله لعباده ، ونسي المقاتلون الله وشريعته ، تصبح الحال بين الكفار وبين المسلمين اسماً : يا أيها الكفرة اقتلوا الفجرة .

١٠ ـ المفاجأة : ونعني بها متابعة التقدم العلمي ، ودراسة آخر نتائج الفكر العسكري .

كانت الحرب في عرف العرب كراً وفراً ، وفاجأ النبي ﷺ قريشاً في بدر بنظام الصفوف المتراصة التي لم تخرق .

وفاجأ خالد بن الوليد الروم في اليرموك بنظام الكراديس .

---

(١) ويتحلى القائد المثالي بالقدرة على اصدار القرارات الصحيحة ـ لوضوح الهدف ولمعرفة ما يريد تحقيقه ـ وبالقدرة على تنفيذ هذه القرارات .

في نهاوند فاجأ المسلمون الفرس في تراجع القلب عن قصـــد ليلتف عليهم الميمنة والميسرة وتم بذلك حصارهم •

في ذات الصواري جعل عبد الله بن سعد بن أبي سرح قتال البحر وكأنه قتال في البر ، عندما فاجأ الروم بربط السفن الإسلامية مع سفنهم •

في الزّلاقة فاجأ يوسف بن تاشفين النصارى بنظام الكمائن التي دخلت ساحة المعركة في الوقت المناسب وهي في غاية الراحة •••

فالقيادة المبدعة في التنظيم والتخطيط ، تبهر العدو ، وتفوت عليه حساباته. وتضمن عنصر المفاجأة التي تربك العدو وتجعله في حيرة من أمره •

١١ ـ الحكمــة : نُقبِل على الحرب عندما تتيقّن من أسباب نجاحها ، ونؤجلها مادامت الظروف غير مواتيــة[١] • فالنبي ﷺ ماحارب في مكة ، على الرغم من الظلم والتعذيب لأصحابه ، وكان يضع الصبر في قلوبهم ، ويعدهم بالفَرَج الآتي ، وكان عمر يقول للنبي : ألسنا على حق ؟ فيقول النبي مجيباً : أنتم قليل يا عمر •

ولما اكتملت الأسباب في المدينة المنورة ، وقامت دولة الاسلام فيها متينة مكتملة التربية والاستعدادات ، كانت الانتصارات الرائعة •

فلا اقدام على حرب غير متكافئة وإلا تكون النتائج جد مؤلمة •

١٢ ـ صفات المجاهدين الخلقية والروحية مهدت لهم طريق النصر : إن الســمعة الطيبة ، والأخلاق التي تحلّى بها المسلمون الفاتحون حببتهم الى الشعوب ، وخذلت عنهم الأعداء ، هذه الصفات هي التي جعلت أهل حمص يبكون عندمـا غادرهم الجيش المسلم الى اليرموك ، وجعلتهم يغلقون أبواب مدينتهم في وجه الروم • وهي التي جعلت أهل سمرقند يعشقون جيش قتيبة ، وهي التي جعلت

---

(١) عرفت الحكمة بما يلي : فعل ما ينبغي ، على الشكل الذي ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي •

الآلاف في الأندلس ينضمون الى جيش طارق •• هذه الصفات الخلقية الرفيعة هي التي جعلت جنوب شرق آسيا ، وأواسط وجنوب أفريقيا ، تدخل في الإسلام وينتصر فيها عقيدة وانتساباً ، على الرغم من عدم وصول جيوش تحمل السيوف إليها •

خُلُق المسلم وسمعته الطيبة، كانا سببين وجيهين لانتصار الإسلام وفوزه على العقائد الأخرى • فالمقاتل المسلم ليس له شبيه من مقاتلي الأمم الأخرى ، إنه الجندي المثالي الذي خرج من جزيرته لنشر عقيدة تحمل في ثناياها حريّة ، وإنسانية ، وخيراً للبشرية جمعاء ، خرج ليبلغ كتاب الله عز وجل للناس أجمع ، فيصبحوا تحت لوائه إخوانا « لهم مالنا وعليهم ماعلينا » •

* * *

هذه أهم مقومات النصر ، فما أعظم الإسلام ، وما أروع تربيته وتخطيطه ، لقد ايقظ العرب الذين لم يكونوا دولة مرهوبة الجانب على مرّ حياتهم قبل الإسلام ، وانطلق بهم ليسطروا أروع انتصاراتهم التي ما زالوا يتغنون ويفتخرون بها حتى يومنا هذا ، وعرب بلا إسلام ، عرب هزائم ، وعرب بالاسلام ، عرب الرفعة والعزة والكرامة ، لأن العروبة لم تجد ذاتها إلا في الإسلام •

وسيجد القارىء في صفحات هذا الكتاب أسباب الهزائم التي مرت على أمتنا •

هذا من الناحية العسكرية ، أما من الناحية الفكرية ، فإن الهزيمة العسكرية قد تبقى على كيان الأمّة ، أما الانهزام الفكري فمعناه بدء النهاية للأمة كلها •

فما أحرانا أن ننظر الى الصراع الفكري من خلال التاريخ والواقع ، لنرى مدى حاجة أمتنا العربية الى الإسلام ، وهذا ما سنراه من خلال بحثنا لبعض المفاهيم التي تغزو أمتنا وأفكارها • وهذا ما سنراه من جهل الجاهلين الذين يظهرون الغيرة على الأمة ، وهم معاول هدم في أيدي أعدائها •

ونقول في خاتمة هذه المقدمة :

إن أمّة لا تعرف الوهن ، أمة لا ريب منتصرة في معاركها •

وإن أمة تقذف الوهن في قلوب أبنائها ، أمة لا شك منهزمة •

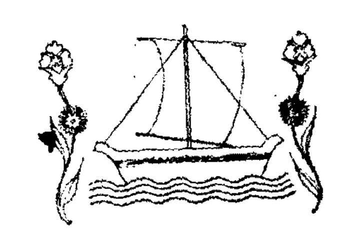
« الذين قالَ لهم الناسُ إن الناسَ قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حَسْبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضل ، لم يمسسهم سُوءٌ ، واتبعوا رضوانَ اللهِ ، واللهُ ذو فضل عظيم » •

فعلى بركة الله نبدأ ، فهو المولى ، وهو نعم النصير •

شوقي أبو خليل

ص • ب ٦٢٢٢

دمشق ـ سورية



مخالفة أمر القائد وخرق الخطة العسكرية

✶ « ولقد صدقكم الله وعده ، اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الاخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » .

« آل عمران : ١٥٢ » .

✶ « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » .

« آل عمران : ١٥٥ » .

* انتصر المسلمون في بدر في السنة الثانية للهجرة ، ورجعت فلول قريش إلى مكة منهزمة ، فعصرت الهزيمة قلوب رجالها ، ممن أصيب أبناؤهم وآباؤهم واخوانهم يوم بدر ، ومنهم عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، فكلّموا أبا سفيان ، فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال ــ يعني مال القافلة التي كانت مع أبي سفيان ــ على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأراً . ففعلوا ..

خرجت قريش بحدّها وحديدها ، ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا بالظعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا ، وخرج أبو سفيان ــ وهو قائد

الناس يومئذ ــ ومعه زوجه هند بنت عتبة بن ربيعة ، حتى نزل ونزلت قريش ببطن الوادي قبلي أحد[1] .

سمع النبي ﷺ والمسلمون بالأمر ، فقال عليه السلام للمسلمين : « قد رأيت والله خيراً ، رأيت بقراً تذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة ، فأولتها المدينة » .

كان رأي النبي واضحاً جدياً ، لقد أراد أن يقيم بالمدينة ، ويقاتل قريش فيها بعد تحصينها . ولكن مخالفة أمر الرسول القائد بدأت من هنا ، ومن تلك المخالفة بدأت الهزيمة .

فمن لم يشهد بدراً من الناس قال للنبي ﷺ : نخرج يا رسول الله إليهم نقاتلهم . ورجوا أن يصيبهم من الفضل والمكانة ما أصاب أهل بدر ، وليبلوا كما أبلى إخوانهم يوم بدر ، وقالوا : كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعو الله ، فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير .

وقال رجل من الأنصار : متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شِعبنا ؟

وقال نعيم بن مالك بن ثعلبة ــ من بني سالم ــ : يا نبي الله لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها . فقال له رسول الله ﷺ : بِمَ ؟ فقال نعيم : بأني أحب الله ورسوله ، ولا أفر يوم الزحف ، فقال له رسول الله : صدقت ، واستشهد رضي الله عنه بأحد .

وقال آخر : يا رسول الله اخرج بنا الى أعدائنا ، لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا .. وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ، ولم يتناهوا إلى رسول الله ﷺ ، لا مخالفة مقصودة ، فيها روح التحدي لأمر رسول الله ، لا ..

---

(١) أحد : جبل بينه وبين المدينة المنورة قرابة ميل في شمالها ، وعنده كانت غزوة أحد « معجم البلدان ، ج : ١ ، ص : ١٠٩ » .

بل اندفاعاً الى عدوهم ، ليكون لهم ما كان لأهل بدر[1] .

فما زالوا برسول الله حتى لبس أداة الحـرب ، وما لبثوا أن ندموا على مخالفتهم لأمر القائد ، عندما تلاشت تلك العاصفة من الاندفاع العاطفي ، وعندما عادوا إلى العقل وتحكيم الإيمان بطاعة رسول الله .

صلى رسول الله ﷺ الجمعة ، ووعظ الناس ، وذكّرهم ، وأمرهم بالجـد والجهاد ، ثم انصرف من خطبته وصلاته ، فدعا بلأمته فلبسها[2] ، ثم أذن في الناس بالخروج، فلما رأى ذلك رجال من ذوي الرأي قالوا : **أمرنا رسول الله ﷺ أن نمكث بالمدينة ، وهو أعلم بالله وما يريد ، ويأتيه الوحي من السماء ، فقالوا : يارسول الله امكث كما أمرتنا . فقال : ما ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب ، وأذن بالخروج الى العدو أن يرجع حتى يقاتل ، وقد دعوتكم الى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا .**

فخرج رسول الله ﷺ والمسلمون ، وهم ألف رجـل حتى نزل بأحُد ، والمشركون القرشيون ومن معهم ثلاثة آلاف .

ورجع عن رسول الله عبدالله بن أبـَيّ بن سلول في ثلاثمائة ، فبقي رسول الله في سبعمائة. لقد كان رأي عبد الله بن أبـَيّ عدم الخروج من المدينة ، وقال : أطاعهم وعصاني ، ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام السلمي ، والـد

---

(١) نصوص هذا البحث ، في الكتب المعتمدة التالية :
- البداية والنهاية ، الجزء الرابع ، صفحة : ١٠ وما بعدها .
- الكامل في التاريخ ، الجزء الثاني ، صفحة : ١٠٣ وما بعدها .
- الطبري ، الجزء الثاني ، صفحة : ٤٩٩ وما بعدها .
- ابن خلدون ، المجلد الثاني ، الجزء الثاني ، صفحة : ٢٤ وما بعدها .
- انسان العيون « السيرة الحلبية » ، الجزء الثاني ، صفحة : ٢٢٨ وما بعدها .
- السيرة النبوية لابن هشام ، الجزء الثالث ، صفحة : ١٤ وما بعدها .

والنصوص موجودة أيضا في كتب الاحاديث الشريفة ، يمكن الرجوع اليها بسهولة ، وقد اعتمدت هنا « البداية والنهاية » بشكل رئيسي .

(٢) اللأمة : الدرع ، وجمعها « لؤم » ، لسان العرب ، ج : ١٢ ، ص : ٥٣٢ .

جابر بن عبد الله ، فقال : يا قوم اذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم • قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكنا لا نرى أن يكون قتال ، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال : أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني عنكم نبيه ﷺ •

وهؤلاء القوم هم المرادون بقوله عز وجل :

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان ، يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون »[(1)] •

يعني أنهم كاذبون في قولهم لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، ذلك لأن وقوع القتال أمره ظاهر بيّن واضح ، لاخفاء ولاشك فيه •

وفي أحد ، نظم النبي ﷺ المجاهدين ، لقد وضع خطة عسكرية نفذها على واقع أرض المعركة ، كان من أهم معالمها أنه وضع خمسين رامياً بقيادة عبد الله ابن جبير على الجبل ، لحماية مؤخرة الجيش ، وقال ﷺ لأمير كتيبة الرماة ، والرماة يسمعون : انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك •

وقال ﷺ : لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا ، وقال : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا ظهرنا على العدو وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم •

وبدأ القتال ، فأنزل الله نصره على المسلمين ، وصدقهم الله وعده ، فحسوهم بالسيوف حتى كشفت قريش ، وكانت الهزيمة لا شك فيها مطبقة عليها •

قال الزبير بن العوام : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة ــ زوجة أبي سفيان ــ وصواحبها مشمرات هوارب ، مادون أخذهن قليل

---

(1) سورة آل عمران ، الآية الكريمة : ١٦٧ •

ولا كثير ، إذ مالت الرماة على العسكر حين كشفنا القوم عنه ، وخلّوا ظهورنا للخيل ، فأتينا من خلفنا ، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل ، فانكفأنا وانكفأ القوم علينا بعد أن أصبنا أصحاب اللواء ، حتى مايدنو منه أحد منهم .

لقد انكشف المسلمون ، وأصاب منهم العدو ، وكان يوم بلاء .. وتم النصر العسكري لقريش . فلماذا نزل الرماة . ولماذا تركوا قائد كتيبتهم عبد الله بن جبير ؟

قال الرماة : الغنيمة ، أي قوم ، الغنيمة ، ظهر أصحابكم فما تنظرون ؟ فقال عبد الله بن جبير : عهد إلي النبي ﷺ أن لا تبرحوا ، أنسيتم ماقال لكم رسول الله ؟ فأبوا ، وقالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة !!

لقد خالف الرماة أمر رسول الله ، أمر الرسول القائد ﷺ ، ونزلوا ممزقين خطته العسكرية ، فطوّقت خيل قريش المسلمين ، بعد أن قتلت من بقي مع عبد الله بن جبير .

وخلال هذا الموقف الحاسم ، قاتل مصعب بن عمير دون رسول الله حتى قتل ، وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي ، وهو يظن أنه رسول الله ، فرجع إلى قريش فقال : قتلت محمداً ، فخارت قوى المسلمين ، حتى رأى أنس بن النضر – عم أنس بن مالك – رجالاً من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا مابأيديهم ، فقال: فما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ، قوموا فموتوا على ماماتت عليه رسول الله ﷺ ، ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قتل، وبه سمي أنس بن مالك . ومما قاله رضي الله عنه قبيل استشهاده : اللهم إني اعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، أي مخالفة أمر الرسول القائد وتركهم للقتال ، لقد وجد بأنس بن النضر رضي الله عنه يومئذ سبعين ضربة ، فما عرفه إلا أخته ، عرفته ببنانه .

وكان أبيّ بن خلف الجمحي يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول : يامحمد إن

عندي العودَ ــ فرساً ــ أعلفــه كل يوم فرقاً من ذرة ، اقتلك عليــه ؛ فيقول رسول الله ﷺ : بل أنا أقتلك إن شاء الله . وفي أحد فرّ أبي بن خلف ، فقــال النبي له : يا كذاب أين تفر ؟ فحمل عليه فطعنه ﷺ فَجُرح جرحاً خفيفاً . فوقع يخور خوار الثور . فاحتملوه وقالوا له : ليس بك جراحة فما يجزعك ؟ قال : أليس قال لاقتلنك لو كانت تجتمع ربيعة ومضر لقتلهم . قتلني والله محمد . فوالله لو بصق علي لقتلني .. فمات بموضع يقال له « سرف » وقريش عائدة بــه إلى مكة .

انتهت المعركة بفوز قريش عسكرياً .. فأدركت أبا سفيان الحمية الجاهلية. فصاح : أفي القوم محمد ؟ فقال النبي لا تجيبوه . فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال النبي : لا تجيبوه . فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟.. ثم قال : إن هؤلاء قُتِلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا . فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه فقال : كذبت ياعدو الله ، أبقى الله عليك ما يحزنك .

ثم صاح أبو سفيان بحمية جاهلية : أعْلُ هُبَل ، أعل هبل[1] ، فقال عمر لرسول الله : ألا أجيبه ؟ قال : بلى ، فقال عمر : الله أعلى وأجل . فقال أبو سفيان: لنا العُزّى ولا عُزّى لكم[2] ، فقال النبي أجيبوه . قالوا : مانقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر . الأيام دول وإن الحرب سجال ، قال عمر : لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار . ثم قال أبو سفيان مجيباً : إنكم لتزعمون ذلك ، لقد خبنا إذن وخسرنا ، أما إنكم سوف تجدون في قتلاكم مثلة[3] ، ولم يكن ذلك عن رأي سراتنا ، ثم قال : أما إنــه إن كان ذلك لم نكرهه . ثم قال أبو سفيان : هلمّ إليّ يا عمر . فقــال

(١) هبل : أعظم أصنام قريش ، كان من العقيق الاحمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى ، صنعت له قريش يدا من ذهب ، وكان أول من نصبه في الكعبة خزيمة بن مدركة بن إياس بن مضر ، فكان يقال له : هبل خزيمة .

(٢) العزى : من الاصنام ، وكانت تمثل شجيرات في وادي نخلة ، وبلغ من تعظيم العرب وقريش اياها أن كانوا يسمون أبناءهم عبد العزى ، « راجع كتاب الاصنام لابن الكلبي ، صفحة ٨ وما بعدها ».

(٣) لقد مثلت هند بنت عتبة بسيد الشهداء الحمزة بعد أن قتله وحشي بحربته .

رسول الله ﷺ لعمر : ائته فانظر ماشأنه . فجاءه ، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله ياعمر ، أقتلنا محمداً ؟ فقال عمر : اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت عندي أصدق من ابن قمئة وأبَرّ .

ولما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل . فقال النبي ﷺ لرجل من أصحابه : قل نعم ، هو بيننا وبينك موعد[1] .

وبعد المعركة قال رجال من قريش ، بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً ، أصبتم شوكة القوم وحدّهم ، ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم .

فلما سمع النبي ﷺ بذلك ، أمر بطلب العدو وقال : « لا ينطلقنّ معي إلا من شهد القتال » ، على مابهم من القرح ، فأنزل الله عز وجل :

« الذينَ استجابوا للهِ والرّسولِ من بعدِ ما أصابَهُمُ القَرْحُ ، للذينَ أحسنوا منهم واتّقَوا أجرٌ عظيم[2] » .

خرج رسول الله يريد قريشاً ، خرج في طلبها ، لتعلم مع من حالفها من الأعراب ، أن الذي أصاب المسلمين في أحد لم يُهِنْهُم عن عدوهم . إنه حدث عارض سببه مخالفة أمر الرسول القائد .

خرج رسول الله حتى انتهى إلى « حمراء الأسد »[3] . وبينما هو فيها ﷺ ،

(١) ومن روائع صور أحد ، أن النبي أرسل محمد بن مسلمة لينظر له ما فعل سعد بن الربيع ، أفي الاحياء هو أم في الاموات ، ذكر ابن مسلمة أنه نادى سعد بن الربيع مرتين فلم يجبه من شدة ألمه ووقوعه في النزع . ولكن لما قال ابن مسلمة : ان رسول الله أمرني أن أنظر خبرك ، أجابه بصوت خفيف : انا في الاموات ، فأبلغ رسول الله ﷺ سلامي ، وان سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته ، وأبلغ قومك عني السلام ، وقل لهم : ان سعد بن الربيع يقول لكم : انه لاعذر لكم عند الله ان خلص الى نبيكم وفيكم عين تطرف ، ثم فاضت روحه الى بارئها .

ومما يذكر ان سعد بن الربيع كان من النقباء ليلة العقبة : وهو الذي آخى رسول الله بينه وبين عبد الرحمن بن عوف .

(٢) سورة آل عمران ، الآية الكريمة : ١٧٢ .

(٣) **حمراء الاسد** : من المدينة المنورة على ثمانية أميال : أقام بها النبي الكريم ثلاثة أيام : الاثنين والثلاثاء والاربعاء .

مرّ به معبد الخزاعي ، وهو يومئذ مشرك ، فقال : يامحمد ! أما والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك . ولوددنا أن الله عافاكم فيهم . ثم خرج معبد من عند رسول الله ﷺ ، ولقي أبا سفيان بن حرب ومن معه « بالرَّوْحَاء »[1] ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله وأصحابه ، وقالوا : أصبنا حدّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ، لنكرنّ على بقيتهم ، فلنفرغَنّ منهم . فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قطْ ، يتحرّقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط ، قال أبو سفيان : ويلك ماتقول ؟ قال معبد : والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل ، قال : فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصل شأفتهم ، قال معبد : فإني أنهاك عن ذلك ، ووالله لقد حملني ما رأيت أن قلت فيه أبياتاً من الشعر ، قال أبو سفيان : وما قلت ؟ قال معبد : قلت :

كَادَتْ تُهَدُّ من الأصواتِ راحلتي إذْ سالتِ الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيل[2]

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه .

* * *

* هذا ملخّص أحداث أحد ، حيث تجاور فيها النصر والهزيمة ، فرق بينهما مخالفة أمر رسول الله . والالتفات الى الغنائم وترك المواقع . هذه هي أهم أحداث أحد ، حيث تجاور فيها نماذج فريدة من الايمان والبطولة ، ونماذج من النفاق والهزيمة !

لقد دفع المسلمون المنهزمون الثمن غالياً ، ليتلقّوا درساً ثمينا غاليا ، ليعيد

(١) بقعة بين المدينة ومكة . وسميت الروحاء لانفتاحها ورواحها ، « معجم البلدان ، ج : ٣ ، ص : ٧٦ » .

(٢) قال الأخفش : يقال جاءت إبلك « أبابيل » أي فرقا ، والمعنى هنا أن كتائب الابل والخيل التي مع رسول الله كانت كثيرة لا تعد .

الجماعة المسلمة لمهمتها العظمى « مهمة القيادة الراشدة للبشرية ، واقرار منهج الله في الأرض ، في صورته المثالية الواقعية »[1] .

لقد أبقى القرآن الكريم في آياته نصوصاً باقية لكل قلب مؤمن ، في أي زمان وأي مكان ، لتكون دروساً تستلهم منها أسباب النصر ، وتحذر بها أسباب الهزيمة .

مخالفات حدثت ، كانت أسباب الهزيمة ، أولاً في المدينة ، وثانياً في الطريق ، وثالثاً أثناء القتال .

* وفي المدينة المنورة .. كان رأي النبي ﷺ البقاء فيها ، ولكن حماس من لم يشهد بدرا ، ظهر عندما طبّق النبي مبدأ الشورى ، وكان من حقه ﷺ أن يلغي ما استقر عليه الأمر نتيجة الشورى ، ولكنه أمضاه ، وهو يدرك ما وراءه من الآلام والخسائر والتضحيات ، لأن اقرار المبدأ ، وتعليم الجماعة ، وتربية الأمة ، أكبر من الخسائر الوقتية .

* وفي الطريق .. ظهرت المخالفة في تغليب الاعتبارات الشخصية، أو الكرامة الفردية على العقيدة ، عند زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، فزعزع وحدة الصف ، وأحدث خلخلة في الموقف ، وأحدث انسحابه هبوطاً في درجات الروح المعنوية ، حتى أن الأنصار استأذنوا حينئذ رسول الله ﷺ في الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة ، فقال ﷺ : لا حاجة لنا فيهم .

* وأثناء المعركة .. كان العامل الرئيسي للهزيمة . إن المخالفة في المدينة ، والمخالفة في الطريق ، كانتا سببين غير مباشرين ، سببين ممهدين ، أما المخالفة أثناء المعركة فقد كانت السبب المباشر للهزيمة .

إن مخالفة الرماة لأمر رسول الله ، الذي هو من أمر الله ، كان خرقاً للخطة العسكرية التي وضعها الرسول القائد ، وكان هذا الخرق ، وهذه المخالفة بسبب

(١) راجع « في ظلال القرآن » ، جـ : ٤ ، ص : ٦٣ وما بعدها ، فالتعليق بتصرف من المرجع المذكور.

الطمع في الغنيمة عند بعض الرماة ، مما جعلهم يتأوَّلون أمر رسول الله • ولا شك أن المخالفة قد جاءت من ظنهم أن المعركة قد حُسِمت ، وأنه لا معنى لبقائهم في مواقعهم • واجتهد بعضهم بمعاونة أصحابهم في مطاردة المنهزمين من قريش ، وجمع السلب منهم ، وادراك ثاراتهم بأيديهم •

ولم تغنِ النماذج العالية من البطولة ، التي تجلَّت في المعركة ، عن المصير الذي انتهت إليه بسبب ذلك الخلل في الصف ، والذي تجلّى أخيراً في مخالفة الخطة العسكرية الناجحة التي وضعها ورتبها رسول الله •

لقد أصاب المسلمين القَرْحُ في أحد ، قُتِل منهم سبعون صحابياً ، وكسرت رباعية رسول الله ، وشُجَّ وجهه الشريف ، كل ذلك ليرد الله عز وجل المسلمين إلى سننه ونواميسه ولو كان رسول الله ﷺ بينهم • فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلَّف ، والأمور لا تمضي جزافاً ، إنما هي تتبع هذه النواميس ، فإذا هم درسوها ، وادركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام ، واستشفوا خط السير ، على ضوء ماكان في ماضي الطريق ، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بأسباب النصر ، وان أولها طاعة الله وطاعة رسوله •

لقد ربى الله الجماعة الإسلامية في هزيمة أحد العسكرية ، وهي في مطلع خطواتها لقيادة البشرية ، ربَّاها بالابتلاء بالشدة ، بعد الابتلاء بالرخاء ، والابتلاء بالهزيمة المرَّة بعد الابتلاء بالنصر ، هذا وذاك وضعا وفق أسبابهما ، ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة ، لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة ، ولتزيد طاعة الله ، توكلاً عليه ، والتصاقاً بركنه ، وتطبيقاً لشرعه ، ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين •

ولقد كان الله سبحانه قادراً على أن يمنح النصر لنبيه منذ اللحظة الأولى ، وبلا كد من المؤمنين ولا عناء ، ولكنه سبحانه ما أراد أن يعوِّد المسلمين على

التقاعس ، وبالتالي على الاعتماد على خوارق العادة ، ونزول المعجزة ، لقد صحّحت أُحد القصور عند المسلمين، وحذرتهم من مفهوم المخالفة لله ولرسوله[1].

إن نزول الرماة بعد تأكيد أمر رسول الله بالتزام مكانهم في كل ظرف ، ضعف أمام اغراء الغنيمة ، بعد أن رأوا النصر الذي يحبونه ، فتفرّق الصف لتفرّق الدوافع ، فريق يحب الآخرة ويسعى إليها ، وفريق يريد غنيمة الدنيا ، فلم يعد الهدف واحداً : « منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة »[2].

« إن لكل حادث سبباً ، ووراء كل سبب تدبير اللطيف الخبير[3] » .

ما جرى في أحد ناموس ثابت ، وسنن حتمية لمخالفة أمر رسول الله ، لقد حادوا عن سنن النصر وشروطه ، فمن سننه الرئيسة « الطاعة » طاعة رسول الله التي هي من طاعة الله، وفهم أصحاب أُحد الدرس القاسي ، لذلك لبّوا نداءه ﷺ لما دعاهم وحدهم من دون غيرهم من المسلمين لملاقاة قريش ، فساروا إلى « حمراء الأسد » يحملون قروحهم وجراحاتهم .

فمما لا شك فيه أن الطاعة هي قوام النظام في كل جيوش العالم ، وعلى أساسها يضع القائد خطته في المعركة ليحقّق النصر ، فإذا ما انعدمت الطاعة ، فسدت الخطة ، وصار الأمر فوضى وخسران .

وهذا ما حدث في أُحد ، فقد خالف الرماة أمر رسول الله وهو القائد الأعلى ، وخرجوا على أميرهم عبد الله بن جبير وهو قائد كتيبتهم ، واندفعوا مع رغباتهم في حيازة الغنائم ، ففسدت بذلك الخطة التي وضعها القائد ، ورتب خطواتها على أساس الطاعة التامة من الجنود ، فكانت مخالفة الجنود سبباً في فساد الخطة ، وكان فساد الخطة سبباً في اضطراب الجيش، وكان اضطراب الجيش

---

(١) راجع تفسير سورة آل عمران في الظلال .

(٢) سورة آل عمران ، الآية الكريمة : ١٥٢ .

(٣) القول للمرحوم سيد قطب .

سبباً في تحوّل النصر الى هزيمة ، وقد أوشكت هذه الهزيمة أن تكون ساحقة لولا رعاية الله ولطفه[1] .

* ما الذي دفع الرماة إلى هذه المخالفة التي خرقت الخطة العسكرية وأوقعتهم في الهزيمة ؟

أهو الخروج على طاعة القائد ؟

أمْ هو الحرص على اغتنام الغنائم وجمع الأسلاب ؟

أمْ هو خطأ التقدير لظروف المعركة وملابساتها ؟

إنهم تأوّلوا قول رسول الله ﷺ حين رأوا الأعداء منهزمين ، وإخوانهم يجمعون الغنائم ، فلا بأس من مغادرة المواقع والاشتراك في جمع الغنائم ، فأراد الله أن يدرك المؤمنون سُنّةً من سننه في خلقه ، أن النصر لا يكون إلا بأسبابه، وأن الهزيمة لها أسبابها أيضاً ، حتى لو كان رسول الله بين الصحابة في المعركة .

وهذا يدل بوضوح على **أن صلاح العقيدة وحده غير كاف لتحقيق النصر ، فللنصر نواميسه وأسبابه ، وإن الأخذ بهذه الأسباب من صلاح هذه العقيدة .. إن منهج الله ثابت ، وموازينه ثابتة .**



(١) راجع صور من حياة الرسول ، ص : ٣٦٩ وما بعدها .

الغفلة عن الله والإعجاب بالكثرة

★ « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين • ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » •
« التوبة : ٢٥/٢٦ » •

* سمعت قبيلة هوازن بأخبار فتح مكة ، فأكل النصرُ المبين الذي حقّقه رسول الله كَبِدَها ، فاجتمعت حول رئيسها مالك بن عوف النصري ، واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، ونصر وجشم وسعد بن بكر ، وكثيرون من بني هلال، وغاب عن هذا الجمع كعب وكلاب••• وكان هذا الجمع كله بقيادة مالك بن عوف، وفيه دريد بن الصمة ، وهو يومئذ شيخ كبير ، ليس فيه شيء إلا اليمْن برأيه ، ومعرفته بالحرب[1] •

ولما أجمع مالك بن عوف ومن معه على السير إلى رسول الله ﷺ ، أحضر مع

(١) مراجع هذا البحث :
ـ السيرة النبويّة لابن هشام ، ج : ٤ ، ص : ٦٠ وما بعدها •
ـ السيرة الحلبية ، ج : ٣ ، ص : ١٢١ وما بعدها •
ـ البداية والنهاية ، ج : ٤ ، ص : ٣٢٢ وما بعدها •
ـ **الكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ١٧٧ وما بعدها •**
ـ تاريخ الطبري ، ج : ٣ ، ص : ٧٠ وما بعدها •
ـ الوفا بأحوال المصطفى ، الباب : ٢٧ في ج : ٢ ، ص : ٧٠٢ وما بعدها •
ـ كتب التفسير ، انظر تفسير الآية : ٢٥ وما بعدها من سورة التوبة •

الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فلما نزل بأوطاس ، اجتمع إليه الناس . وفيهم دريد بن الصمة في شجار[1] له يُقاد فيه ، فلما نزل قال : بأيّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجالُ الخيل ! لا حَزْنٌ ضَرِس[2] ، ولا سَهْل دِهس[3] ، مالي أسمع رُغاء البعير ، ونُهاق الحمير ، ويُعار الشاء ، وبكاء الصغير !

قالوا : ساقَ مالك بن عوف مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، فقال : أين مالك ؟ فقيل : هذا مالك ، فدُعي له ، فقال : يا مالك ، إنّك قد أصبحتَ رئيس قومك ، وإنّ هذا يوم كائن له مابعده من الأيام ، مالي أسمع رُغاء البعير ، ونهاق الحمير ، ويعار الشاء ، وبكاء الصغير ! قال : سُقْتُ مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولِمَ ؟ قال : أردتُ أن أجعل خَلْفَ كلّ رجل أهلَهُ ومالَهُ ليقاتل عنهم ، قال : فانقضَ به[4] ، ثم قال : راعي ضأنٍ والله ! هل يردّ المنهزمَ شيء" ! إنها إن كانت لك لم ينفعك إلاّ رجل" بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فُضِحْتَ في أهلك ومالك . مافعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهد منهم أحد ، قال : غاب الجِدّ والحدّ ، لو كان يوم عَلاءٍ ورفعة لم تَغِب عنه كعب وكلاب ، ولوَددت أنكم فعلتم ما فعلتْ كعب وكلاب ، فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر ، قال : ذانك الجَذعان[5] من بني عامر ! لا ينفعان ولا يضرّان ، يا مالك إنّك لم تصنع بتقديم البَيْضة ، بيضة هوازن ، إلى نُحور الخيل شيئاً ، ارفعهم الى متمنّع بلادهم وعُلْيا قومهم ، ثم القَ الصبّاء[6] على مُتُون الخيل ، فإن كانت لك لَحِق بك مَنْ وراءك ، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزتَ أهلك ومالك .

---

(١) الشجار : شبه الهودج ، إلا انه مكشوف الأعلى، ودريد فيه لانه تجاوز مائة وعشرينسنة بكثير.
(٢) الحزن : المرتفع من الارض ، والضرس : الذي فيه حجارة محددة .
(٣) الدهس : اللين الكثير التراب .
(٤) انقض به : اي زجره .
(٥) الجذع : الشاب الحدث .
(٦) الصباء : جمع صابىء ، وهم المسلمون عندهم ، كانوا يسمونهم بذلك لانهم صبؤوا من دينهم ، اي خرجوا .

قال مالك بن عوف : والله لا أفعل . إنك قد كبرتَ وكبر علمك . والله لتطيعُنَّني يا معشرَ هوازن أو لأتَّكئَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ! وكره أن يكون لدريد فيها ذكرٌ ورأيٌ ، قال دريد بن الصمة : هذا يوم لم أشهده ، ولم يَفُتْني :

يا ليتني فيها جَذَعْ ... أخُبُّ فيها وأضَعْ[1]

أقُودُ وَطْفاءَ الزَّمَعْ ... كأنَّها شاةٌ صَدَعْ[2]

ثم قال مالك للناس : إذا أنتم رأيتم القومَ فاكسروا جفونَ سيوفكم ، وشُدُّوا شَدَّةَ رجل واحد عليهم . كما أرسل مالكُ عيوناً من رجاله لينظروا له ، ويأتوه بخبر المسلمين ، فرجعوا إليه وقد تفرَّقت أوصالُهم ، فقال : ويلكم ! ماشأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْق ، فوالله ماتماسكنا أن أصابنا ماترى ! فلم ينههُ ذلك عن وجهه ، أن مضى على مايريد .

سمع بما سبق رسول الله ﷺ ، فبعث الى هوازن ومن معها عبدَ الله بن أبي حَدْرد الأسلمي ، وأمره أن يدخلَ في الناس ، فيقيم فيهم حتى يأتيه بخبر منهم ، ويعلم مِنْ علمهم ، فانطلق ابن أبي حَدْرَد ، فدخل فيهم ، فأقام معهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ، وعلم أمرَ هوازن وما هم عليه ، ثم أتى رسول الله ، فأخبره الخبر .

خرجَ رسولُ الله ﷺ ومعه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة ، فكانوا اثنى عشر ألفاً .. فلما استقبلوا وادي حُنَين[3] ، انحدروا في وادٍ من أودية تِهامة أجوف حَطُوط[4] ، وفي عَماية الصبح[5] ، وكانت هوازن ومن معها قد سبقوا إلى الوادي ، فكمنوا في

---

(١) الخبب والوضع : ضربان من السير .
(٢) الوطفاء : الطويلة الشعر ، والزمع : الشعر الذي فوق مربط الدابة .
(٣) حنين : واد بجنب ذي المجاز ، بينه وبين مكة ثلاث ليال ، « معجم البلدان » ، ج : ٢ ، ص:٣١٣ .
(٤) أجوف : متسع .
(٥) عمايةالصبح : ظلامه قبل أن يتبين .

شِعابه ومضايقه ، قد أجمعوا وتهيَّأوا وأعدوا . شدَّت كتائب هوازن على المسلمين شدَّة رجل واحد ، فانهزم الناس أجمعون ، لا يلوي أحدٌ على أحد . فقال رسول الله ﷺ عندما رأى ذلك : أين أيها الناس ! هلمّ إليّ ! أنا رسولُ الله ، أنا محمد بن عبد الله ! .. ولم يجد نداؤه ﷺ ، إلا أنه قد بقيَ مع رسول الله نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته . وممَّن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر ، وعمر ، ومن أهل بيته عليٌّ بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وابنــه الفضل ، وأبو سفيان بن الحارث ، وربيعة بن الحارث ، وأيمن بن عبيد ، وأسامة ابن زيد بن حارثة .

قال أبو سفيان لما رأى الهزيمة : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر .

وصرخ كَلَدةُ بن الحنبل : ألا بطل السِّحْرُ اليوم .

وقال شيبةُ بن عثمان بن أبي طلحة : اليوم أدْرِكُ ثأري ــ وكان أبوه قُتل يوم أُحُد ــ اليوم أقتل محمداً ، قال : فأردت رسولَ الله لأقتله ، فأقبل شيء حتى تغشَّى فؤادي فلم أطقْ ذلك ، وعلمت أنه قد مُنع مني .

قال العباس بن عبد المطلب : إني لمعَ رسول الله ﷺ آخذٌ بِحَكَمَة[1] بغلته البيضاء ، قد شجرتُها بها[2] ، قال : وكنت امرأ جسيماً شديد الصوت ، قال : ورسول الله ﷺ يقول حين رأى من الناس ما رأى : أين أيها الناس ! فلمّا رأى الناس لا يَلْوُون على شيء قال : يا عباس ، اصرخ : يا معشر الأنصــار ! يا أصحاب السَّمُرَة ! فناديت : يا معشَر الأنصار ، يا معشر أصحاب السَّمُرة ! قال : فأجابوا : أنْ لبَّيك لبيك ! قال : فيذهبُ الرجل منهم يريد ليَثْني بعيرَه ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ دِرْعه فيقذفها في عُنقه ، ويأخذ سيفه وتُرسه ، ثم يقتحم عن بعيره فيخلّي سبيله في الناس ، ثم يؤمّ الصوت ، حتى إذا اجتمع إليه

---

(١) الحكمة « محركة » ما أحاط بالحنك من لجامه .

(٢) شجرتها بها : أي وضعتها في شجرها ، وهو مجتمع اللحيين .

منهم مائة رجل استقبلوا الناس ، فاقتتلوا •• ولما رأى النبي مُجْتَلَدَ القوم وهم يجتلدون قال : الآن حَمِيَ الوطيس[1] ! وقال ﷺ مرتجزاً :

أنا النبيُّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عبد المطلبْ

فما رُئِيَ من الناس أشدّ منه ﷺ •

قال جابر بن عبد الله : واجتلد الناس ، فوالله ما رجعتْ راجعةُ الناس من هزيستهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين •

وعن أنس قال : كان النبي ﷺ يوم حُنَيْن على بغلة بيضاء ، يقال لها دُلْدُل ، فلمّا انهزم المسلمون ، قال النبي ﷺ لبغلته : البُدِي[2] دُلْدُل ! فوضعت بطنها على الأرض ، فأخذ النبي ﷺ حَفْنَةً من تراب ، فرمى بها في وجوههم ، وقال : حم لا يُنْصَرون ، فولى المشركون مُدْبرين ، ماضربَ بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم •

انهزمت ثقيف وهوازن ، ولما وصل فَلُّ ثقيف الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها • وتبعها النبيُّ والمسلمون ، ودام حصار الطائف بضعاً وعشرين ليلة[3] •• اسلمت بعدها ثقيف •

*** لقد انهزم المسلمون في حنين ، بسبب خلل أصاب النفوس ، ألا وهو : الاعجاب بالكثرة ، ونسيان الله عز وجل • لقد تناست القلوب في حنين مسبب النصر ، وأعجبت بالكثرة وأخذت بها ، فكان الدرس القيّم •**

عندما ينسى المؤمن ربّه ، يركنه لنفسه ، وعندما يوثّق الصلة به ، يأتيه النصر منه سبحانه : « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها »[4] •

---

(١) الوطيس : التنور يخبز فيه ، « والخبر في سيرة ابن هشام ٢ : ٢٩٠ » •
(٢) البدي : أمر من لبد بالمكان ، اذا لزمه ولم يبرحه •
(٣) وفي ابن هشام : « ويقال : سبع عشرة ليلة » •
(٤) سورة التوبة ، الآية الكريمة : ٢٦ •

حُنَين •• أول معركة يجتمع بها للمسلمين جيش عدده اثنا عشر ألفـا ، فأعجبتهم كثرتهم • لقد غفلوا عن مسبب النصر ، عن منزل النصر ، عـن مثبت القلوب •• فأراهم الله عز وجل في أول المعركة نتيجة غفلتهم عنه ، ثم نصر نبيّه بقلّة مؤمنة ثبتت معه ، والتصقت به ، وتفانت في الجهاد في سبيل الله ، وفي سبيل نصرة رسول الله •

إن الاعجاب بالكثرة ، هزيمة روحية ، سبقت الهزيمة في ميدان المعركة ••

* إن معركة حُنَين نتيجة طبيعية للانشغال عن الله •• « والاعتماد على قوة غير قوته ، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية ، حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة ، إن الكثرة العددية ليست بشيء ، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجرّدة للعقيدة ، وإن الكثرة لتكون أحياناً سبباً في الهزيمة ، لأن بعض الداخلين فيها ، التائهين في غمارها ، ممن لم يدركوا حقيقـة العقيـدة التي ينساقون في تيارها[1] ، تتزلزل أقدامهم ، وترتجف في ساعة الشدة ، فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف ، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله ، انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة ، لا بالزبد الذي يذهب جفاء ، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح ! »[2] •

* * *

* لقد أراد الله سبحانه ، لحكمة ارتآها ، أن يسجل التاريخ في كتب السيرة هزيمتين ، ليعلم من سيرث الأرض من المؤمنين ، أن الخلل إن يقـع في صفوف المسلمين ، تنطبق عليهم سنن الله ، ويسجل التاريخ هزيمة ولو كان رسول الله بينهم يقودهم •

---

(١) اشارة الى الفين من سكان مكة المكرمة ، انضموا الى جيش النبي بعد الفتح مباشرة •
(٢) « في ظلال القرآن » ، المجلد : ٤ ، ص : ١٦٦ •

ونحن نجزم أن النبي ﷺ لم ينهزم قط ..

في أحد : رتّب ﷺ الأمور بخطة عسكرية حققّت النصر ، ولكن الرماة هم الذين اجتهدوا فأخطأوا فأضاعوا النصر .. ومع ذلك لم تحقق قريش ما أرادت من أُحد ، لقد أرادت قتل رسول الله ، لمحو الرسالة الجديدة ، لذلك كان سؤال أبي سفيان بعد المعركة : « أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟ » .

وفي حُنَين : لم ينهزم النبي ﷺ ، لقد انهزم حديثو العهد بالإيمان ، وانهزم من نسي اللهَ وأعجب بكثرة عدده ، ونصر الله نبيَّه بقلة من أصحابه المخلصين ، عندما أنزل سكينته عليهم ، وأنزل جنوداً لم يروها ، « فوالله ما رجعتْ راجعةُ الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين » بين يدي رسول الله .

ولعلنا نتلمّس حكمة الله إذا قلنا : **سطرت في السيرة الشريفة أحداث غايتها أن تبلغ هذه الأمة قمة التجرد لله وحده ، وأن تصل غاية الاخلاص لدينه !!**



الاستقلال بالرأي والاقدام حتى التهور

✶ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي عبيد بن مسعود الثقفي : « اسمع من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبيّن ، ولا يمنعني أن أؤمر سليط بن قيس إلا سرعته الى الحرب ، وفي التسرع الى الحرب ضياع الاعراب ، فانه لا يصلح الا الرجل المكيث(١) » .

* أحجم الناس عن الخروج إلى دولة الفرس ، لما في نفوسهم من عظمتها وشوكتها القديمة ، ولكن المثنى بن حارثة الشيباني[٢] وقف في المدينة المنورة وقال : أيها الناس ، لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإنا قد فتحنا ريف فارس ، وغلبناهم على خير شِقَّي السواد[٣] وشاطرناهم ، ونلنا منهم واجترأنا عليهم ، ولنا إن شاء الله مابعدها .

وكان أول من استجاب للخروج أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، فأمَّره عمر رضي الله عنه على الجيش ، فسار بالمسلمين إلى أرض العراق ، بعد أن أوصاه عمر أن يسمع من أصحاب رسول الله ويشركهم في الأمر ، وألا يتسرّع ..

---

(١) المكيث : المتاني والمتبصر في الامور .

(٢) المثنى بن حارثة الشيباني : أسلم سنة ٩ هـ ، وفد على أبي بكر فأكرمه وأمره على قومه ، وعاد يغير على سواد العراق فأمده أبو بكر بخالد بن الوليد فكان بدء الفتح .. توفي سنة ١٤ هـ بسبب جراحته التي انتقضت عليه . « الاعلام ، ج : ٦ ، ص : ١٥٨ » .

(٣) أرض السواد ، أرض العراق الجنوبية الواقعة بين دجلة والفرات .

سأل رستم كبيرَ الفرس وأعظمَ قوادهم ، أيُّ العجم أشد على العرب ؟ قالوا : بهمن جاذويه ، فسيَّره رستم ليقابل أبا عبيد .

بعث بهمن جاذويه إلى أبي عبيد : إما أن تعبر النهر ـ نهر الفرات ـ إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم ، **فنهى الناس أبا عبيد عن العبور ، ونهاه سليط أيضاً ، فلج وترك الرأي والمشورة ، وقال أبو عبيد : لا يكونوا أجرأ على الموت منا .** فعبر إليهم على جسر عقده « ابن صلوبا » للفريقين، فضاقت الأرض بأهلها ، واقتتلوا ، وكان مع الفرس فيلة ، فلما رأتها خيل المسلمين جفلت ولم تتقدم نحوها ، ففرّقت الفيلة خيل المسلمين ، ورمى من عليها بالنشاب، فاشتد الأمر على المسلمين ، فترجّل أبو عبيد والناس ، ثم مشوا الى الفرس حتى صافحوهم بالسيوف ، ولكن الفيلة ما حملت على جماعة إلا دفعتهم ، فقال أبو عبيد : اقطعوا بطائن الفيلة ، واقلبوا عنها أهلها ، ووثب هو على فيل أبيض، فقطع بطانه ، فوقع الذين عليه ، وفعل المسلمون مثل ذلك ، فما تركوا فيلاً إلا حطّوا رحاله ، وقتلوا أصحابه .

وأهوى فيل على أبي عبيد ، فضربه بالسيف فقطع خرطومه ، لكن الفيل ضرب أبا عبيد بيده ، فوقع أبو عبيد ، ووطئه الفيل وقام عليه ، فلما بصر به الناس تحت الفيل ، خشعت أنفسهم . وتتابع على أخذ اللواء سبعة أنفس من ثقيف ، فقاتلوا حتى الشهادة . فأخذ اللواء المثنى بن حارثة الشيباني ولكن بعد أن ذهبت ريح المسلمين ، وانكشف أمرهم ، وبعد بدء تراجعهم على الجسر الى ضفة الفرات الغربية .

ولما رأى عبد الله بن مرثد الثقفي ما لقي أبو عبيد وخلفاؤه ، وما يصنع الناس، بادرهم الى الجسر فقطعه ، كي لا يتراجع أحد .. وقال : يا أيها الناس موتوا على ماماتت عليه الناس أمراؤكم أو تظفروا .

وحصر الفرس المسلمين إلى الجسر وقد انقطع ، فتواثب المسلمون الى الفرات ، فغرق من لم يصبر .. ولكن المثنى وفرساناً من المسلمين حموا من بقي ، وقال المثنى : « أنا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا فاننا لا نزايل حتى

نراكم من ذلك الجانب ، ولا تغرقوا أنفسكم »[1] • ونادى المثنى من عبر فنجا ، فعقدوا الجسر ، وعبر الناس ، وكان آخر من عبر سليط بن قيس •

جرح المثنى في هذه المعركة ، وخسر المسلمون فيها أربعة آلاف ، ولم يبق مع المثنى إلا ثلاثة آلاف ، وقتل من الفرس في هذه المعركة « معركة الجسر »[2] ستة آلاف ، لكن المعركة كانت خسارة للمسلمين ، وبخاصة بعد قطع الجسر من قبل عبد الله بن مرثد الثقفي •

وبلغت هذه الهزيمة عمر ، فقال : « اللهم إن كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم[3] .يرحم الله أبا عبيد ، لو كان عبر فاعتصم بالخيف . أو تحيَّز إلينا ، ولم يستقل[4] ، لكنا له فئة » •

لقد اقتص المسلمون من الفرس في معركة جرت بعد زمن قصير على نهر البويب[5] . بعد أن ندب عمر رضي الله عنه إلى المثنى ، والتقى المثنى بجيش الفرس بقيادة « مهران » فقال للمثنى : إما أن تعبر إلينا . وإما أن نعبر اليك ! فقال المثنى : اعبروا •• فعبر مهران ومن معه •• وبدأ القتال . والمثنى بحق كان فارس الميدان . إن رأى خللاً أصلحه . كما فعل ببني عجل حيث قال لهم : لا تفضحوا المسلمين اليوم . فقالوا : نعم . واعتدلوا •• فضحك المثنى فرحاً . ولما اشتد القتال قال وهو على فرسه في وسط المسلمين : عاداتكم في أمثالهم . انصروا الله ينصركم •

هُزِمَ الفرس وتسارعوا الى الجسر المعقود فوق البويب . ولكن المثنى سبقهم إليه ، فقطعه ، فتفرّق الفرس ، فلحقت بهم خيل المسلمين ، وسمي هذا

---

(١) في « البداية والنهاية » قال المثنى : « أيها الناس على هينتكم . فاني واقف على فم الجسر لا اجوزه حتى لا يبقى منكم أحد ههنا » ، (الجزء : ٧ . صفحة : ٢٨) •

(٢) وقعت سنة ١٣ للهجرة تقريبا •

(٣) « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » الانفال ١٥و١٦ •

(٤) أي لم يستقل برأيه •

(٥) البويب : اسم نهر كان بالعراق موضع الكوفة يأخذ مياهه من نهر الفرات •

اليوم « يوم الأعشار » ، فقد أحصي مائة رجل مسلم قتل كل رجل منهم عشرة من الفرس • وأصبح السواد بعد البويب مفتوحاً أمام المثنى •

* في معركة الجسر غلطتان سببتا الهزيمة :

١ - مخالفة أبي عبيد لمن معه من رؤساء الجيش ، لقد نهوه عن العبور فلم ينثه، واستقل برأيه ، لقد عبر أبو عبيد الجسر بشجاعة واقدام وايمان وحب للشهادة، لكنه لم يحسب للمعركة حسابها الكامل ، ولم يدرس أرض المعركة بشكل كاف •

إن التاريخ ليسجل لأبي عبيد بن مسعود الثقفي إقدامه بكل فخار : « لا يكونوا أجرأ على الموت منا » ، وإنه ليسجل أيضاً تعجّله ، وعدم تبصره بالأمور قبل إقدامه ، ليحقق النصر بأقل خسارة ممكنة •

إن الذي نقص أبا عبيد وافتقده قبيل المعركة ؛ نجده كاملاً رائعاً في حياة النعمان بن مقرّن المزني ، لقد كان النعمان بحق « الرجل المكيث » ، فحقّق نصر نهاوند « فتح الفتوح » بأقل خسائر ممكنة ، لقد صدق النعمان في طلب الشهادة، كما صدق أبو عبيد ، ولكن صدق النعمان كان بلا تهوّر أو تسرّع ، لقد شاور أصحابه قبيل المعركة وأخذ بما قالوا ، ولم يجتهد مسرعاً في القتال حتى تبيّن أمره تماماً ، فلم يضع أصحابه •

لما سبق •• نجد اسم النعمان في مكانة أسمى وأرقى وأبرز من اسم أبي عبيد على صفحات تاريخنا •

لقد سجل التاريخ اسم أبي عبيد بن مسعود الثقفي بعد معركة الجسر ، بأحرف تشع اقداماً وحباً للشهادة ، ولكن مع تهور ، وبدون تبصّر •

والتاريخ ذاته . سجل اسم النعمان بن مقرّن المزني بأحرف أبرز وأكبر واعرض ، بأحرف نطقت إقداماً وحباً للشهادة ، ولكن بلا تهور أو تعجّل •• بل مع تبيّن وحزم وتبصر في الأمور ، وحساب دقيق للنتائج •

٢ ـ والذي زاد غلطة أبي عبيد ، غلطة زادت الغلطة الأولى أثراً وخسارة وفاجعة ، إنها غلطة عبد الله بن مرثد الثقفي ، عندما قطع الجسر ، كيلا يرتد أحد من المسلمين . ولولا ثبات المثنى بن حارثة الشيباني لهلك المسلمون عن آخرهم .

إن النصر مع الاقدام يرافقه ، ولكن مع التبصر والأناة بعيداً عن التهور .

*** فهنيئاً للمثنى اقدامه في الجسر وفي البويب ، وللنعمان اقدامه وأناته وتبصره في نهاوند .**

ولله أمر الاقدام حتى التهور ، فانه مهلكة للجند ، ومضيعة للمعركة .



المنافقون
« أو الطابور الخامس »[1]

★ « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بـــه عدو الله وعدوكم وآخرين مـــن دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وأنتم لا تظلمون » ٠

« الأنفال : ٦٠ »

* « معيار الأخبار في تاريخ كل أمة ، الوثوق مـــن مصادرها ، والنظر في ملاءمتها لسجايا الأشخاص المنسوبة إليهم ، وأخبار التاريخ الإسلامي نقلت عن شهود عيان ذكروها لمن جاؤوا بعدهم ، وهؤلاء رددوها لمن بعدهم ٠ وقد اندس بين هؤلاء الرواة أناس من أصحاب الأغراض زوروا أخباراً على لسان آخرين ، وروجوها في الكتب ، إما تقرباً لبعض أهل الدنيا ، أو تعصباً لنزعة يحسبونها من الدين » ٠

من يمحص من هذا المنطلق الأخبار التي وردت عن الخليفة الراشدي الثالث

(١) الطابور الخامس : اصطلاح يطلق اليوم ليدل على فئة داخلية خبيثة مخربة في مجتمع ما ، عرفت هذه العبارة لاول مرة عام : ١٩٣٩ ، عندما نشبت الحرب الاهلية في اسبانيا ، التي بدأت عام ١٩٣٦ حتى ١٩٣٩ ، والتي قادها فرانسيسكو فرانكو ضد نظام الحكم الجمهوري الذي قام عام ١٩٣١ ٠ ولما سئل أحد قادة فرانكو وهو « اميليوميلو » عن خطته لمهاجمة العاصمة الاسبانية مدريد قال : سأهاجمها في أربعة طوابير وطابور خامس داخل المدينة مدريد ، ولما سئل أيضا عن « الطابور الخامس » الموجود داخل المدينة كيف دخلها قال : لم أقصد طابورا خامسا عسكريا ، بل فئة من سكان المدينة غايتها تثبيط الهمم ، وترويج الشائعات ، واثارة البلبلة ، وفي ٢٨ آذار ١٩٣٩ سقطت مدريد بيد اميليوميلو ٠ وعرف العالم كله اصطلاحا جديدا : « الطابور الخامس » ٠

عثمان بن عفان رضي الله عنه . يجدها جملة افتراءات كاذبة مضخَّمة ، وتهماً باطلة، ودسّاً مدروساً ، تَبْتَغي فتنة داخلية ، تفرّق الجماعة الإسلامية ، وتهدف إلى عرقلة مسيرة الاسلام ، وايقاف انتصاراته الحاسمة .

ولسنا هنا في صدد تفنيد ما أتهم به سيدنا عثمان ، فقد جمعها القاضي أبو بكر العربي في كتابه القيم : « العواصم من القواصم » ، وتناولها بكفاءة المرحوم الدكتور يوسف العش[1] . ولكننا هنا في صدد اليد الخفية التي اشعلت الفتنة الكبرى ، يد المنافقين الذين أظهروا إسلاماً واضمروا كفراً ، انهم الذين يسمون اليوم في عرف السياسة « الطابور الخامس » .

إن يداً خفية حركت الفتنة ، وأثارت الثائرين على عثمان ، واستمرت في الفتنة من بعده ، يد .. كانت خلف الثائرين في تحريضهم كلما هدأت الأمور .

إن المستقرىء لحوادث الفتنة يشعر بجلاء بانه كانت هناك يد خفية تحرك الفتنة ، ويزداد شعوره بها حينما يقرأ النصوص التاريخية الصحيحة . يد تلعب ، وتثير النعرات ، وتغذي الخصومات . إنها يد عبد الله بن سبأ ، الصفائي الأصل ، اليهودي الذي أظهر الإسلام زمن عثمان رضي الله عنه ، ثم تنقّل في بلدان المسلمين يحاول إضلالهم ، فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام . فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام . فأخرجوه حتى أتى مصر فاستقر فيها ، وأخذ يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل : « إن الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » محمد أحق بالرجوع من عيسى .

---

(١) رجعنا في هذا البحث الى المصادر التالية :

ـ تاريخ الطبري ، ج : ٤ وأول الجزء الخامس من ص : ٥ حتى ص : ١٦٠ .

ـ الكامل في التاريخ لابن الاثير ، ج : ٣ ، من حوادث سنة خمس وعشرين ص : ٤٥ ، الى نهاية أحداث سنة أربعين ص : ٢٠٢ .

ـ البداية والنهاية ، ج : ٧ ، من ص : ٢٢٣ الى نهاية الجزء السابع ص : ٣٦٢ .

ـ تاريخ ابن خلدون : المجلد الثاني ، ج : ٢ ، ص : ١٣٨ حتى نهاية الجزء .

ـ الملل والنحل للشهرستاني ، الجزء الاول ، ص : ١١٤ وص : ١٧٤ .

ـ واعتمدنا بصورة رئيسية على كتاب « الدولة الاموية » للمرحوم الدكتور يوسف العش . ومحاضرة للشيخ عبد الحميد .

فقبِل ذلك عنه ، ووضع بذلك « الرجعة » . ثم قال في مصر بعد ذلك : إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي ، وكان علي وصي محمد • ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء • ثم قال : ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالطعن على امرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر • فبثّ دعاته وكاتب من كان استفسده في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرأه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة المنورة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرون غير ما يبدون ، فيقول أهل كل مصر : إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء ، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس •

وفيما سبق يظهر الأسلوب الخبيث الذي اتبعه ابن سبأ ، لقد رفع من منزلة علي ، وجعل من عثمان مغتصباً ، ليوقع بين اثنين من الصحابة الكرام ، أحدهما يظهره مهضوم الحق وهو علي ، ثم حاول ابن سبأ أن يحرك الناس على أمرائهم ، فجعل الناس يثورون لأصغر الحوادث ، وحض أتباعه على ارسال كتب تحمل أخباراً سيئة مفجعة عن مصيرهم الى بقية الأمصار ، ليخيل الى كل مصر أن الأمصار الأخرى أسوأ حالا من حالهم ، وتلقت المدينة كتب الأمصار جميعاً تخبر بسوء حالها كل ذلك من اتباع ابن سبأ •

شعر عثمان رضي الله عنه أن أمراً يحاك في الأمصار ، فأرسل رسله إليها تحمل كتاباً نصّه : « أما بعد فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يُرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته ، وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلا متروك لهم ، وقد رفع

إلي أهل المدينة أن أقواماً يُشْتَمون ، وآخرين يُضْرَبون ، فيا من ضرب سراً، وشتم سراً ، من ادعى شيئاً من ذلك ، فليواف الموسم ، فليأخذ بحقه حيث كان ، مني أو من عمالي ، أو تصدّقوا فإن الله يجزي المتصدقين » . فلما قرىء في الأمصار ، بكى الناس ، ودعوا لعثمان بالخير ، ولكنهم قالوا : إن الأمة لتمخض بشر . والواقع .. إنها كانت تمخض بشر كبير ، فابن سبأ ــ وطابوره الخامس ــ مازال يغري قلوب الناس ، ومازال يعمل عمله .

وجمع ابن سبأ أشياعاً في مصر ، وأشياعاً من الكوفة والبصرة .. هذا الجمع الغفير خرج كله يريد المدينة المنورة . ولكن أهل مصر يميلون الى علي كرم الله وجهه ، وأهل البصرة يميلون الى طلحة ، وأهل الكوفة يميلون الى الزبير . وهذا الاختلاف في الرأي من صنع ابن سبأ ، لتبقى الفتنة قائمة حتى بعد عثمان ، ولذلك إنّهم لما دخلوا المدينة المنورة ، ذهب أهل مصر الى علي ، وأهل البصرة الى طلحة، وأهل الكوفة الى الزبير .. ولكنهم جميعاً لقوا رداً حاسماً ، بل طرداً وانكاراً ، وبُعداً وبتراً .

وقابلت الوفود عثمان رضي الله عنه ، وعادت وهي راضية عنه ، بعد أن حكّموا كتاب الله بينهم ، وبينما الوفد المصري في طريقه من المدينة الى بلاده ، إذ هم براكب يتعرّض لهم ، ثم يفارقهم ، ثم يرجع إليهم ، ثم يفارقهم ويسبقهم ، وهذا الراكب أمره عجيب ، إنه في مهمة سرية ، ولكنه لم يتجنب الناس في طريقه ، كما هو شأن المرسلين بأمرخطيرهام، إنما كان يقصدأن يُعْرَفَ أمْرُه ، فهوالذي كان يتعرض لهم ثم يفارقهم ، ثم يرجع إليهم ، ثم يفارقهم ، وكأنه يقول : إنني مريب ، اسألوني عن مهمتي وعما معي ، وقد تم له ما أراد .

قال له الوفد المصري : مالك ؟ إن لك لأمراً ، ماشأنك ؟

فقال : أنا رسول أمير المؤمنين الى عامله بمصر . ففتشوه ، فاذا هم بكتاب على لسان عثمان ، عليه خاتمه الى عامله بمصر ، أن يصلبهم ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، فأقبلوا حتى قدموا المدينة ، فأتوا علياً كرم الله وجهه ،

فقالوا : ألم تر الى عدو الله ؟ إنه كتب فينا كذا وكذا ، وان الله قد أحل دمه ، قم معنا إليه ، قال علي : والله لا أقوم معكم ، فقالوا : فلم كتبت إلينا ؟ فقال : والله ما كتبت إليكم كتاباً قط ، فنظر بعضهم الى بعض ، ثم قال بعضهم الى بعض : ألهذا تقاتلون ؟ أو لهذا تغضبون ؟

وهنا تنبه علي الى أمر هام .. الثوار كل في طريق الى أمصارهم ، ثم عادوا جميعا ، فقال علي لهم : ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟ قال أهل مصر : أخذنا مع البريد كتابا موقعا من عثمان يأمر عامله بقتلنا ، قال علي كرم الله وجهه : كيف علمتم يا أهل الكوفة ، ويا أهل البصرة بخبر الكتاب المرسل الى أهل مصر ، وقد سرتم مراحل على طريق بلدكم ؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة . فقال الثوار : ظنوا ما شئتم فلن نحيد عن طلب اعتزال عثمان(١) ، واستقروا بالمدينة ، وانطلقوا حتى دخلوا على عثمان ، فقالوا : كتبت فينا بكذا وكذا . فقال رضي الله عنه : إنما هما اثنان : أن تقيموا عليّ رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمليت ولا علمت ، وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل، وقد ينقش الخاتم على الخاتم .

فعثمان رضي الله عنه يلفت النظر إلى أن الخاتم ليس خاتمه ، بل هو خاتم منقوش على مثال خاتمه . وهذا تزوير يمكن حدوثه . ومما يذكر .. أنه لم يزوّر على لسان عثمان فقط ، بل كما يقول ابن كثير : قال مسروق لعائشة : هذا ــ أي مقتل عثمان ــ عملك ، أنت كتبت إلى الناس تأمرينهم أن يخرجوا إليه . فقالت رضي الله عنها : لا والذي آمن به المؤمنون ، وكفر به الكافرون ماكتبت لهم سوداء في بيضاء .

إذن .. وراء الفتنة مؤامرة تحاك ، وليس أبطالها الصحابة الكرام كعلي وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم ، بل آخرون منافقون ، لا يظهرون أنفسهم ، إنهم «الطابور الخامس» الذي يعمل من وراء ستار ، يعمل بدهاء وبخطط محكمة مدروسة .

حتى أن الأشتر قال يوم حوصر عثمان ، ومنع عنه الماء : لعله قد مكر به

---

(١) ان سؤال علي كرم الله وجهه يكشف قصة الكتاب الذي كان يحمله مرسل يعرض نفسه ليمسك، وان المصريين مع الكوفيين مع البصريين كانوا قد اتفقوا على الكتاب الذي دبروه هم قبل افتراقهم !!

وبكم • فوطئه الثائرون • إنهم أرادوا استمراراً للمؤامرة التي حيكت ضد الإسلام وأهله ، لا ضد عثمان بالذات •

إن عثمان رضي الله عنه — قولاً واحداً — لم يُغَيِّر تحكيم كتاب الله عز وجل بينه وبين وفد مصر ، ولم يرسل أي كتاب الى عامله في مصر فيه أمر بقتل الخارجين عليه ، وهو يستطيع أن يقتل الخارجين بمن معه من الصحابة وأبنائهم . ولكنه قال : والله إني لأرجو أن ألقى الله ولم أهرق محجمة[1] من دم المؤمنين •

وخشي الثوار قدوم جيش من الأمصار بطلب من عثمان ، فرأوا أنه لا ينجيهم مما وقعوا فيه إلا قتل عثمان ، لأنه إن قتل اشتغل الناس به عنهم • فقتلوا عثمان رضي الله عنه •

وهنا نقف لحظات مع الذين وصفوا دم عثمان في ذمة علي •• علي كرم الله وجهه عندما طلب عثمان الماء ، وحول بيته عشرة آلاف فارس يمنعون عثمان قطرة الماء ، فإذا بعلي يحمل قربتين على ظهر الحسن والحسين ويرسلهما الى بيت عثمان ، وهو يعلم أن الثوار إذا رأوهما سيقتلونهما ، وعندما يصل الماء الى دار عثمان ويخرج علي معه ، يتدافع الثوار معه حتى سقطت عمامته عن رأسه ، ويقول كرم الله وجهه : لن تصلوا إلى عثمان مادمت حياً •

وعندما يقتل عثمان يرى عليُّ الحسنَ والحسينَ . فيقول لهما : كيف تركتما عمكما عثمان يُقتَل ؟ قالا : يا أبت إننا أردنا أن ندافع عنه ، ولكنه أبى • قال علي : كنت أتمنى أن تكونا قد لقيتما الطريق الذي لقيه — أي أن تقتلا معه — •

وجاء الثوار إلى علي ليبايعوه على الخلافة ، وهنا تبدأ المرحلة الحاسمة من حياة علي ، والتي يتشكك فيها كثيرون ، المرحلة التي يُغْمَزُ بها أيضاً بعض الصحابة •• المرحلة التي دخلت بها يد اليهودية لهدم الإسلام •

---

(١) قارورة يتخذها الحجام •

ونحن مادمنا نتحدث عن علي كرم الله وجهه ، فاننا لا نرغب التعريض بمعاوية ، ولكن الخطأ يجب أن يقال عنه إنه خطأ . ويجب أن نعرف من تاريخنا ما يحب أعداء الله أن يطعنوا فيه ، ليفرّقوا المسلمين ، فيلعنون معاوية ، أو يشتمون عليا .

جاء إلى علي قَتَلَةُ عثمان لمبايعته . ولكنه رفض مبايعتهم ، كيف يبايع قتلة عثمان ؟! ولكن جاءه بعدها وجهاء الصحابة ، وأفهموا عليا أن الأمة الاسلامية أصبحت بلا خليفة . من شمال افريقيا . الى حدود الاتحاد السوفييتي اليوم ، دولة إسلامية واحدة بلا خليفة . من يحمل المسؤولية .. فحملها علي كرم الله وجهه ، حملها وهي جريحة . وهي مهدّدة بفتنة أحكم الطابور الخامس صياغتها ، وأتقن تنفيذها .

وقتلة عثمان .. ماذا يعمل بهم علي ؟ لقد أراد قتلهم ، ولكن كيف يقتلهم وهم المسيطرون على المدينة المنورة ، إنهم عشرة آلاف اشتركوا في قتل عثمان ، ومعهم معلمهم ــ قائد الطابور الخامس وفكره المحرّك ــ معهم عبد الله بن سبأ[1] ، فتمهل علي .. حتى تهدأ عاصفة الفتنة .

لكن علياً .. تسرّع بعزل ولاة الأمصار حين ولي الخلافة ، وقد يكون قد ارتكب خطأ بعزله لمعاوية والي الشام . وكان رأي عبد الله بن عباس والمغيرة بن شعبة أن حسن السياسة تقتضي ترك الولاة ، ثم يتحيَّن الفرص لعزلهم إن شاء ذلك .

بايع كل الصحابة عليا ، بما فيهم طلحة والزبير ، وهنا جاء بعض أفراد

---

(١) درسنا في السنة الثالثة في كلية الآداب ــ قسم التاريخ في جامعة دمشق عام ١٩٦٤ كتابا وحيدا عن تاريخ العرب والاسلام يحمل عنوان « تاريخ العرب والاسلام » . وقد بحث الدكتور المؤلف الفتنة من ص : ١٢٢ ــ ١٣٦ ، ومما يؤسف له حقا ، ان الدكتور المؤلف بحث الفتنة وجعلها بسبب ظروف مادية اقتصادية ، ولم يذكر اسم ابن سبأ « اليهودي » سبب الفتنة ولو مرة واحدة . لقد بحث الفتنة بموضوعية وعلمية انطلاقا من عقيدته . فاذا به يزيد الطين بلة عندما يقول : « وكان علي وطلحة والزبير على رأس الناقمين على عثمان . فياسبحان الله ، لقد أوكل الأمر الى غير أهله !!! فهل ننتظر الساعة ؟.

المنافقين ، أفراد الطابور الخامس ، الى طلحة والزبير ، وقالوا كيف تبايعون عليا ، وعلي قد أخذ البيعة من قتلة عثمان •• مَنْ يتكلَّم ؟ قتلة عثمان أنفسهم يقولون هذا لطلحة والزبير . ولماذا يقولون هذا ؟ لأنهم عرفوا أن توطُد الأمر لعلي كرم الله وجهه سيقضي عليهم ، سيقتلهم . سيقتص منهم بسبب دم عثمان • فإذا بقيادة ابن سبأ تضع بذرة الشقاق بين طلحة والزبير من جهة ، وعلي من جهة ثانية •

فخرج طلحة والزبير الى مكة المكرمة ، ليرويا لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الحادثة ، ويخرجا بها الى البصرة ، لقتل قتلة عثمان •

وجاء الخبر الى علي : إن طلحة والزبير وعائشة قد خرجوا إلى البصرة • ماذا يريدون ؟ يريدون دم عثمان . ويتعجَّب علي ، وهل أنا ممن قتل عثمان حتى يعادونني ؟

علي كرم الله وجهه يريد أن يقتل قتلة عثمان ، ولكن الفتنة مشتعلة ، وهو مشغول مع ولاته بعد عزلهم ، وخصوصاً عزل معاوية والي الشام ، لعل في الأمر خطأً سياسياً . ولكن معاوية رفض أن يعزل نفسه حتى ينتقم علي من قتلة عثمان أولاً •

ويرسل علي إلى معاوية : الأمر الآن بيدهم ، إن الموقف في المدينة تحت سيطرتهم . بايع أنت وأصحابك حتى يستتب الأمر ، ولن أترك أحداً من قتلة عثمان حياً •• رفض معاوية بيعة علي •• فخرج علي إليه بجيش •

لك الله يا علي •• أنت البريء من كل شيء ، والتهمة تقع عليك ••

ويصل علي إلى العراق ليقابل طلحة والزبير وعائشة ، ويرسل إليهم رسولاً من عنده ليقول : ماذا تريدون ؟ قالوا : نريد قتل قتلة عثمان • قال : وهل لعلي يد في قتل عثمان ؟ قالوا لا ، إذن بايعوه وكونوا معه حتى يستطيع أن يقتل قتلة عثمان • أما تفرقتم عنه ، وخذلتموه ، وتريدون أن يقتل قتلة عثمان ؟! قالوا : أرسله إلينا نتصالح • فقرر علي الخروج في فجر ذلك اليوم ليعقد الصلح مع طلحة والزبير •

فإذا بابن سبأ يقول لطابوره الخامس : ياقوم إن عزكم في خلطة النـاس فخالطوهم ، وإذا التقى الناس غداً ، فابدؤوا القتال ، ولا تتركوا للناس مجالاً للتفـاهم .

أما علي فقال : « إنا وهم مسلمون » . « يا أيها الناس املكوا أنفسكم ، وكفوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القـوم ، فإنهم اخوانكم ، واصبروا على ما يأتيكم ، وإياكم أن تسبقونا ، فان المخصوم غداً من خصم اليوم » ، لذلك بات الجميع على الصلح .

وبات السبئيّة قتلة عثمان بشر ليلة باتوها قط : وتشاوروا أمرهم ، حتى اجتمعوا على انشاب الحرب سرا ، فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم ، انسلوا لانشاب الحرب انسلالا ، « خرج مضريهم الى مضرِّيهم ، وربيعهم الى ربيعهم ، ويمانيهم الى يمانيهم ، فوضعوا فيهم السلاح » . فخرج طلحة والزبير في وجوه الناس ، فقالا : ما هذا ؟ قالوا : طرقنا أهل الكوفة ليلاً ، فقالا : قد علمنا أن علياً غير منتهٍ حتى يسفك الدماء .

وقال علي لما رأى القتال : ما هذا ؟ قال رجل وضعه الثوار عن قصد بجوار علي ليخبره بما يريدون : ما فجئنا إلا وقوم منهم بعيننا ، فرددناهم مـن حيث جاؤوا . وقال علي : لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء . ونادى علي في الناس : أيها الناس كفوا . ولكن السبئيّة يخافون أن يجـري الصلح ..

ونظر علي كرم الله وجهه فإذا القتل يشتد ، والرؤوس تتطاير ، وقلبه ينزف مع كل قطرة دم ، لأن القاتل والمقتول مسلم ، ماذا يفعل ؟ وما العمل ؟!

وينادي علي" طلحة ، ويجيب طلحة : نعم يا أبا الحسن . فيجيب أبو الحسن كرم الله وجهه : جئت بعرس رسول الله ، وخبأت عرسك في المدينة ؟! ماذا تقول . لرسول الله إن قال لك جئت بزوجتي الى هذه **الأرض ؟ فأحسَّ طلحة بعمله ،**

وأدار وجهه وخرج من المعسكر ، وبينما هو خارج من المعسكر ، إذ بواحد من أصحاب الفتنة يأخذ سهماً ويقتل طلحة به •

إن الفتنة مخطّطة ، وإنها لمؤامرة تحاك ، أبطالها يعملون من وراء ستار بقيادة عبد الله بن سبأ ، وما أرادوا لها نهاية •

ويلتقي علي مع الزبير في أرض المعركة ، فيقول عليٌّ للزبير : يا زبير كيف تقاتلني وأنت لي ظالم ؟؟! قال الزبير : أنا أظلمك يا أبا الحسن ؟! قال علي : نعم ، ألا تذكر يوم التقيت وإياك في المدينة ، وكان رسول الله ينظر إلينا ، فنظرت الي يا زبير فضحكت ، فقال لك الرسول لم تضحك يازبير ، قلت يا رسول الله إني أحب أبا الحسن ، فقال لك رسول الله : يا زبير ، ستقاتل علياً وأنت له ظالم[1] •

تذكّر الزبير رضي الله عنه هذا الموقف ، فأدار عنان فرسه ، وخرج من المعركة وهو يقول : اللهم استغفرك وأتوب إليك ، ولكن عمرو بن جرموز ، أحد قتلة عثمان لحق به ، وقتله بين مكة والعراق وهو يصلي ، قتله غدراً وعاد الى العراق : إذن القضية مخطط لها •

أما عائشة رضي الله عنها فقد أرادت ايقاف الحرب ، فأرسلت كعباً يتقدّم بكتاب الله عز وجل ليدعوهم إليه ، لكن السبئيّة رشقت كعباً رشقاً واحداً ، فقتلوه !! حتى رموا عائشة في هودجها ، فجعلت تنادي : يابني ، البقية البقية ، الله الله ، اذكروا الله عز وجل والحساب ، وتأبى السبئيّة إلا احتداماً واستمراراً للقتال • فقالت : أيها الناس العنوا قتلة عثمان وأشياعهم ، وأقبلت تدعو ، وضجّ أهل البصرة بالدعاء ، وسمع علي بالدعاء فقال : ما هذه الضجة ، فقالوا : عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم • فأقبل علي يدعو ويقول : اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم •

وحرض ابن سبأ أشياعه على قتل عائشة ، فبدؤوا هجوماً على هودجها ، فما

(١) وهذه من معجزات المصطفى ﷺ •

كان من علي كرم الله وجهه ، إلا أن أمر أربعين شابا من شبان الصحابة ، وقال لهم : اضربوا جمل عائشة بسهم ، فإذا سقط فالتفوا حوله ، ولا تدعوا أحداً يصل إليها ، وفعلوا ذلك ، وانتهت المعركة .

انتهت المعركة ، فإذا بعلي بشهامة المؤمن الورع يقول لجنده : إياكم أن تقتلوا جريحاً ، أو تلحقوا مهزوماً ، أو تأخذوا درهما من أموال إخواننا المسلمين. فإذا أخطأوا ، فالخطأ مردود ، ليس لكم من أموالهم شيء .

وأخذ علي" أمّ المؤمنين الى بيته ، ثم جَيَّش معها أربعين جندياً ، وخرج الناس لوداع أم المؤمنين ، وخرج علي لوداعها ، فقالت : يا بني يعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة، فلا يَعْتَدن أحد على أحد بشيء بلغه من ذلك ، إنه والله ماكان بيني وبين علي في القديم . إلا مايكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه عندي ، على معتبتي ، من الأخيار .

وقال علي : يا أيها الناس صدَقَتْ وبرّت . ما كان بيني وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة .

وخرجت يوم السبت لغرّة رجب سنة ٣٦ هـ ، وشيعها علي أميالاً ، وسرّح بنيه معها يوماً . وأرسل معها أخاها محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما الى المدينة المنورة ، بحماية أربعين جندياً ، فلما وصلت رضي الله عنها الى دارها ، علمت أن الجنود الذين كانوا معها كلهم من النساء ، اختارهن علي كرم الله وجهه حرمة لرسول الله ﷺ ، فأطرقت رأسها وقالت :

((لقد أبى أبو الحسن إلا أن يكون علياً)) .

ثم التفت علي بجيشه الى الشام ، فالتقى بمعاوية في صفين ..

حجة علي أنه إمام تنبغي له الطاعة .. ومن مع علي يرون أن معاوية لا يعدل بعلي ، ولا يسوي المسلمون بينه وبين معاوية ، وإذن .. فواجب معاوية أن يبايع علياً .

وحجة معاوية ، هي أن علياً إن لم يكن قد قتل عثمان ، فهو آوى قتلته ، ولا يرضى معاوية بأقل من أن يسلمه علي قتلة عثمان • فقال علي لمعاوية : فِيء الى ظل الله إن كنت تريد قتلة عثمان ، فبايع وأنا أعطيك إياهم ، ولكن بعد أن يستتب الأمر • فقال معاوية : لا أبايع حتى تقتل قتلة عثمان ، ولا اعترف بك أميراً للمؤمنين •

وهنا أراد علي حقن دماء المسلمين فقال : يا معاوية لم تقتل المسلمين ؟! اخرج أنت ، وأخرج أنا وجهاً لوجه ، فإن قتلتك كانت لي الخلافة ، وإن قتلتني كانت لك الخلافة • ولكن عمرو بن العاص ، داهية العرب ، ووزير معاوية قال لمعاوية : قد أنصفك أبو الحسن ، وهو يعلم أن معاوية إن خرج لعلي لا يقف معه دقيقة ، فعلي حامل باب خيبر ، وقاتل عمرو بن عبد ودّ العامري ويقف معاوية أمامه ؟!

وفي تلك الليلة تتكرر مأساة الجمل ، ألف رجل من قتلة عثمان ، من الطابور الخامس ، يهاجمون جيش معاوية ليلا •• انهم يعلمون اذا تم الصلح ، قتلوا •• فاذا بالفتنة المخطط لها تشتعل ثانية ، فيقتل فيها عشرون ألف مسلم ، انه ابن سبأ وطابوره الخامس ، ممن كانوا يحبون هدم الاسلام •

وعندما اقترب انتصار علي ، وقد لاح جلياً واضحاً ، إذ بمعاوية يرفع المصاحف ، ماذا في الأمر ؟! فيقول معاوية : نقبل مافي كتاب الله ليحكم بيننا وبينكم •• وما رفع معاوية المصاحف إلا خوفاً من الخسارة •

ويقول علي : ويلكم أنا أعلم ما في كتاب الله ، والله مارفعتموه إلا خوفاً مني ، ثم أمر جنده بمتابعة القتال ، ولكن قتلة عثمان عادوا فنقضوا الآن البيعة لعلي ، في لحظة حاسمة تنتهي الفتنة فيها نقضوا بيعتهم ، وقالوا لعلي : يدعوننا إلى كتاب الله ، ونقاتل معك •• إنهم لا يريدون أن تنتهي المعركة •• فأفهمهم كرم الله وجهه أن رفع القرآن خدعة ، فلم يرتضوا •• لأن علياً إن انتصر انتهت الفرقة ، وتلاشى الخلاف ، ومصيرهم معروف ، إذاً فالوقوف موقف الوسط ، الموقف المُحَيِّر دون حل حاسم لأحد الطرفين يجعل الفتنة قائمة ، فوقف ابن سبأ ومن معه موقف الوسط وقالوا : لن نقاتل بعد الآن جندَ معاوية ، حتى يحكم

كتاب الله بيننا وبينهم • فقال علي : تخذلونني في هذه اللحظة ؟! قالوا : إن لم توقف بقية الجند عن القتال لنقتلنك ونلحقك بعثمان[1] !!

أوقف القتال ، واتفق الطرفان على التحكيم •

أبو موسى الأشعري رضي الله عنه الذي ارسل كان لا يمثل علياً في رأيه، صحيح أن أبا موسى اشتهر بالقضاء ، ولكن الأمر هنا أمر توكيل ، وليس قضاء • وأبو موسى نفسه تردّد قبل بيعة علي ، ولم ينضم إليه إلا بعد لأي ، أضف الى ذلك عدم دخوله في القتال ، إذ انه تنحّى جانباً ، فلا يسكن والحالة هذه ، أن يمثل صاحبه •• لذلك أراد علي عبد الله بن عباس ، ولكن الذين قتلوا عثمان أرادوا أن لا تنتهي الفتنة ، بل كلما آل الأمر الى وئام ، فلا بد من بذور خلاف •

وجاؤوا ليوقعوا كتاباً أمام علي في التحكيم • فقال علي : هذا مابايع عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين بقية المسلمين على أن يقبل مافي كتاب الله • فقال عمرو بن العاص : أمح كلمة أمير المؤمنين ، قال : لِمَ ؟ قال : لاننا لا نعترف بك أميراً للمؤمنين •• ومحاها علي من عقد التحكيم بيده ، وقال : صدق رسول الله، أمحها وأنا راض[2] •

وبعد التحكيم ، وبعد حكم أبي موسى وعَمْرٍو ، حيث خلع أبو موسى علياً ومعاوية ، وثَبَّتَ عمرو معاوية وخلع علياً •• عادت الفتنة بسبب الطابور الخامس ، حيث خرجوا عن علي ، خرج قتلة عثمان عن علي وطاعته ، وأصبحوا الخوارج ، وصاروا يقاتلون علياً • لِمَ تقاتلونه ؟ قالوا : لأنه قبل التحكيم ، وقبل بتحكيم أبي موسى وعمْرٍو ، ولم يحكّم القرآن • من رضي بالتحكيم ؟ ألستم أنتم ؟ قالوا : لا • وخرج علي لقتالهم بعد أن عينوا عليهم عبد الله بن وهب

---

(١) قالوا حرفيا : « لترجعن الأشتر عن قتال المسلمين ، والا فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان » الملل والنحل ، ص : ١١٤ •

(٢) في صلح الحديبية كتب علي رضي الله عنه : « هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله » ، فقال سهيل بن عمرو « مندوب قريش » : لا تكتب رسول الله ، فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك ، فقال النبي لعلي « امحه » ، فقال علي : ما أنا بالذي أمحاه ، فمحاه النبي عليه السلام بيده ، وأخبر النبي عليا أنه مثل هذا الموقف سيكون له ، وقد كان •

الراسبي ، فتراجع قسم منهم وانضموا إلى علي قبيل المعركة ، وبقي آخرون في غيهم فقاتلهم علي وقتلهم عن بكرة أبيهم إلا ثمانية ، وسمّيت موقعةُ علي هذه مع الخوارج باسم موقعة حَرَوْراء[1] .

وعاد علي الى الكوفة يتهيىء لقتال معاوية ، وخرج بما يقارب خمسين ألف. وبعد ثلاثة أيام ، صلى الفجر ونظر خلفه فإذا بالباقين ألف رجل ، لقد انسحب كل قتلة عثمان ، وخذّلوا عنه الناس ، فعاد الى الكوفة .. يسأل الله عز وجل أن ينقذه من أشباه الرجال ولا رجال .

وفي يوم من الأيام ، وعلي يوقظ الناس لصلاة الفجر ، إذا بعبد الرحمن بن ملجم الخارجي ، يترصّده ، وبحسام مسموم ، وبضربة غادرة ، قتل ابن ملجم علياً .

وفي بيت علي رأى ابنيه الحسن والحسين فقال : ياحسن . ياحسين . هذا ماقاله لي رسول الله ، ستقتل ياعلي وأنت مظلوم ، يا أبنائي أوصيكم بتقوى الله. ولا تغرنكم الدنيا فإن ظلها زائل ، ونعيمها حائل وللآخرة خير لك من الأولى .. ثم يلتفت كرم الله وجهه إلى قاتله ابن ملجم ويقول : يا عبد الرحمن ، أنت الذي ضربتني ؟! كم أحسنت إليك ؟! كم أكرمتك ؟! وبالرغم من أن علياً كان يعرف مصيره المحتّم ، فقد طلب إلى أولاده بألا يمثلوا بالقاتل ، وأن يحاكموه بشرع الاسلام ، فهو يتمسّك بتفاصيل الشرع الحنيف ، حتى آخر ساعة ، أو لحظة في حياته . فقال كرم الله وجهه : إياكم أن تمثلوا به ، إن شفاني الله إما أسامحه ، أو اقتص منه وان مت فاضربوه ضربة واحدة . واستدار الى عبد الرحمن بن ملجم وقال : ياعبد الرحمن أخاصمك بدمي أمام رب العالمين .. وأغمض عينيه . وفاضت روحه الى بارئها .

* ومهما قيل بحق علي كرم الله وجهه ، بأنه كان رجل حرب لا يرى حل الأمور إلا عن طريق الحرب ، والسياسي لا يستعمل الحسام إلا بعد أن يفل الرأي وينقطع ، وأنه كان ضعيفاً على قومه ، يخضع لهم ، ولا يسود عليهم ، فإن اخفاق

---

(١) حروراء : موضع على ميلين من الكوفة نزل به الخوارج الذين خالفوا علي بن أبي طالب . « معجم البلدان ، ج : ٢ ، ص : ٢٤٥ » .

علي كان مرجعه أنه راشدي ، يتبع سياسة الراشدين في عصر أقلقه وجعل الاضطراب في كل جنباته بسبب الطابور الخامس •

لقد كان الناس في عهد الراشدين على قلب رجل واحد ، وفكر واحد ، ومذهب واحد ، ثم هاهم أولاء في عصر علي ينقسمون شيعاً ومذاهب ، لاسيما وان ابن سبأ قد ادخل فيهم أفكاراً غريبة ، زعم أن علياً حي لم يمت ، فيه الجزء الإلهي ، ولا يجوز أن يستولى عليه ، وهو الذي يجيء في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق بسمته ، وانه سينزل الى الأرض بعد ذلك فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً[1] •

لقد خذل علياً « المنافقون » ، الذين كانوا يستعجلون الأمور ، خذله « الطابور الخامس » الذي قاده عبد الله بن سبأ ، لقد كان ((مزاودا)) في كل موقف ، مهيئاً لاستمرار الفتنة بعد كل تصرف يسبب الصلح أو التقارب بين الفئتين المتحاربتين •

المنافقون •• الذين يبطنون السوء ويظهرون غير ما يبطنون ••

الطابور الخامس •• الفئة الداخلية الخبيثة المخربة •• بسببهم كانت معارك علي كرم الله وجهه لا تحسم ، وبسببهم تم انتقال الخلافة من علي الى الفرع الأموي السفياني •

فئة داخلية تبطن غير ما تظهر إن نظرت إلى أفرادها ، كما قال المصطفى ﷺ : « تَحْتَقِرُ صلاةَ أحدكم في جنب صلاتهم ، وصوم أحدكم في جنب صيامهم ، ولكن لا يجاوز ايمانُهُم تراقيهم » ، نعم •• **((إنهم قوم يمرقون من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية)) •**

إن فتنة عثمان عبرة لنا اليوم ، فالقلب السليم الطاهر ، إن دخل فيه خبثُ طويّة ، أو أحد ممن يحبون الطائفية ، أو أحد ممن يخطط ماكراً لهدم الإيمان والاسلام ، أو أحد ممن يرسم خطوات مدروسة لهلاك المسلمين •• أهلك ذلك

---

(١) راجع الملل والنحل ، ص : ١٧٤ • حتى أنه في حياة علي كرم الله وجهه وبسبب ابن سبأ قدم اناس الى علي وقالوا : أنت ، أنت • « أي أنت الله » فزجرهم علي ، وقال ان لم ترجعوا عما تقولون لأحرقنكم ، ففرحوا بقوله وقالوا : اذن أنت أنت ، لانه لا يعذب بالنار الا الله ، وحرقهم ولم يرجعوا بسبب ما وضعه ابن سبأ في أذهانهم !!

صاحب القلب السليم ، وهزم ذلك الأرواح ، وفرّق الكلمة •• وأفرح العدو •• إذ يتحقق له مايريد بفتنة داخلية يسببها « الطابور الخامس » ••

لقد كانت الفتنة بما فيها من جَمَلٍ وصفين واستشهاد علي •• هزيمة داخلية ، هزيمة وحدة الصف الداخلي ، وانتجت فرقة الى يومنا هذا •• سَنَّة وشيعة ، كما أنها أوقفت انتشار الدعوة الاسلامية لمدة ليست يسيرة ، كما أزهقت أرواح الألوف ، أرواح كان عليها أن تلقى وجه ربها وهي تنشر إسلاماً وعدلاً وإخاء وانسانية ••

لقد كانت الفتنة هزيمة على النطاق الداخلي ، سببها « الطابور الخامس » •

وفي نهاية هذا البحث نقول : كان السَّواد من فئة عبد الله بن سبأ من الأعراب الذين ارتدوا أيام الصدّيق رضي الله عنه • وهؤلاء الأعراب وصفهم القرآن الكريم بقوله : « الأعرابُ أشدُّ كفراً ونفاقاً وأجدَرُ ألا يعلموا حدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسوله ، والله عليمٌ حكيم • ومن الأعراب من يتخِذُ ما يُنفِقُ مغرماً ويتربَّصُ بكم الدوائِرَ عليهم دائرةُ السَّوءِ واللهُ سميعٌ عليم » • التوبة ٩٧/٩٨ •

هؤلاء الأعراب الذين لم تكن لهم صحبة مع رسول الله يتلقون من خلالها تزكية وعلماً • أما من صحب منهم رسول الله فتزكى : « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذُ ما ينفق قُرُباتٍ عند اللهِ وصلواتِ الرسول ، ألا إنَّها قُرْبَةٌ لهم ، سيدخلُهُم اللهُ في رحمته ، إنَّ الله غفورٌ رحيم » التوبة / ٩٩ •

فالأعراب الذين وصفهم الله « أشدُّ كفراً ونفاقاً » كانوا السواد الأعظم من فئة ابن سبأ ، وهم الذين ارتدوا أيام الصدّيق ، فرفض أن يرسلهم للفتوح لتبقى الفتوح خالصة لله لا شائبة في جند الله ، ولم يتساهل عمر أيضاً إلا بعد حين ، وعثمان بعد أن توسعت رقعة الفتح اضطر الى ارسالهم والاستعانة بهم ، وهؤلاء الأعراب يشدهم الطمع ، ويأخذ منهم القول والتهيج ، فأدرك ابن سبأ ذلك ، فأمطرهم بوابل من الكتب المزوّرة ، يدعي أنها وردته من علي وطلحة والزبير

وعائشة •• حتى إذا اجتمعوا بهؤلاء ، لم يجدوا إلا رفضاً وممانعة ، ووجدوا عثمان مقدّراً للحقوق ، متّبعاً لشرع الله ، فعادوا الى الأمصار راضين ، لكن زعيم الطابور الخامس هيّأ العودة •• واستغلهم أحسن استغلال •• فكانت هزيمة على نطاق الصف الداخلي ، وكان الانقسام في مذهب الأمة الى يومنا هذا •• فحذار حذار من « الطابور الخامس » !!! ففيه هلاك الأمة •



قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية

✶ « **لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا بريء مما تعملون** » .

« يونس : ٤١ »

رأى الحسن بن علي رضي الله عنه أنه لا ينبغي له أن يثق بمن حوله من أصحاب أو من جموع ، فقد خبرهم وعرفهم بما قاساه والده كرم الله وجهه منهم ، وهو في الوقت نفسه يكره قتلة عثمان ، فقد حاربهم يوم حصارهم لدار عثمان ، فآثر أن يترك الخلافة على أن يبتلى بهم .

ومنذ بيعة الحسن ، ظهر عدم ميله الى الخلافة ، فقد طفق يشترط على من بايع في العراق بقوله : « إنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت ، وتحاربون من حاربت » . فقرر الحسن التنازل لمعاوية ، وسمي عام ٤١ هـ ، عام الجماعة ، لذلك .. يعتبر الحسن بن علي ركناً للتفاهم والجماعة ، لقد جمع المسلمين على خليفة واحدة ، بعد فرقة واختلاف .

---

(١) ان مصادر هذا البحث كثيرة جدا ، وهي مصادر متشابهة لا يختلف بعضها عن بعض ، واعتمدنا هنا تاريخ الطبري ، الجزء الخامس ، صفحة ٣٤٧ وما بعدها ، ويمكن الرجوع أيضا الى :

✶ البداية والنهاية ، ج : ٨ ، ص : ١٤٩ وما بعدها .
✶ الكامل في التاريخ ، ج : ٣ ، ص : ٢٦٦ وما بعدها .
✶ تاريخ ابن خلدون ، المجلد : ٣ ، ص : ٢١ وما بعدها .
✶ الدولة الاموية ، ص : ١٥٥ وما بعدها .

على أن « عام الجماعة » ، وانتقال الخلافة الى الأمويين ، لم يقض على كل المشكلات ، إن روح الخلافة الراشدية استمرت عند كبار الصحابة العلماء في شكلها الحقيقي متصدّية معارضة • كما أسّس معاوية نظام الوراثة بولاية العهد ، وذلك تقليد استنّه لعلّه يسنع الخلاف ، ويحقن الدماء ، إلا أنه تقليد يسنع الأصلح ، ويعطي الأمر لغير اللائق •

ومات معاوية في رجب سنة ٦٠ للهجرة ، فخلفه ابنه يزيد ، فظهر معارضون أنكروا البيعة ليزيد ، وعلى رأسهم : الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر •

كتب يزيد الى الوليد بن عتبه عامله على المدينة المنورة ، أن يأخذ له البيعة من هؤلاء النفر : « أما بعد ، فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بين الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ، ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام » • فبايع عبد الله ابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وأبى عبد الله بن الزبير وسار الى مكة المكرمة ، واستعاذ بالبيت العتيق ، كما أبى الحسين بن علي وتوجّه الى مكة أيضاً •

وسمع أهل الكوفة بمغادرة الحسين الى مكة المكرمة ، فطفقوا يرسلون إليه كتبهم ، يعلمونه فيها أنهم لم يلتزموا الطاعة ليزيد ، ولا لأميرهم في بلدهم ، وانهم بحاجة إليه ، فليحضر إليهم ليبايعوه : « إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، فاقدم علينا » ، ومما كتبوه أيضاً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لحسين بن علي من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد ، فحيّهلا ، فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأي لهم في غيرك ، فالعجلَ العجل ، والسلام عليك » ••• وتكاثرت الكتب على الحسين حتى بلغت وقر بعير ، وكان منها أيضاً : « أما بعد ، فقد اخضّر الجنَاب ، واينعت الثمار ، وطَمَّت الجِمام ، فإذا شئت فاقدم على جند لك مجنَّد ، والسلام عليك » •

وتلاقت الرسل عند الحسين ، وكان آخر من جاءه من العراق : هانيء بن

هانىء السَّبيعي ، وسعيد بن عبد الله الحنفي ، وكان آخر الرسل ، فكتب الحسين إلى أهل الكوفة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من حسين بن علي الى الملأ من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد ، فإن هانئاً وسعيداً قَدِمَا عليَّ بكتبكم ، وكانا آخر من قدم عليّ من رسلكم ، وقد فهمت كلَّ الذي اقصصتم وذكرتم ، ومقالة جُلِّكم : إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق . وقد بعثتُ إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي ، وأمرتُهُ أن يكتب إليّ بحالكم وأمرِكم ورأيكم ، فإن كتب إليَّ أنه قد أجمع رأي مَلئِكم وذوي الفضل والحِجَى منكم على مثل ماقدمتْ عليَّ رُسُلكم ، وقرأتُ في كتبكم ، أقدم عليكم وَشيكاً إن شاء الله ، فلَعَمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسَهُ على ذات الله ، والسلام » .

وبعث الحسين ابنَ عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ، وقال له : « سِرْ إلى الكوفة فانظر ماكتبوا به إلي ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم » . فخرج مسلم حتى قدم الكوفة ، واستطلع الأمر ، فكتب الى الحسين : « أما بعد ، فإن الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فعجّلِ الاقبالَ حين يأتيك كتابي، فإن الناس كلهم معك ، ليس لهم في آلِ معاوية رأي ولا هَوىً والسلام » .

علم يزيد بأمر مسلم بن عقيل فأمر عبد الله بن زياد واليه على البصرة أن يطلب مسلماً ويقتله ، فقدم ابن زياد الكوفة في وجوه أهل البصرة ، واستطاعت عيونه الامساك بابن عقيل ، وبكى ابن عقيل وهو في طريقه لابن زياد ، فسئل عما يبكيه فقال : « أبكي لأهلي المقبلين إليّ ، أبكي لحسين وآلِ الحسين » . كما أوصى ابن عقيل عمر بن سعد ، وصية جاء فيها : « إن عليّ بالكوفة دَيْناً استدنته منذ قدمتُ الكوفةَ ، سبعمائة درهم فاقضها عني ، وانظر جُثتي فاستوهبْها من ابن زياد ، فوارِها ، وابعث الى حسين مَنْ يردّه ، فإني قد كتبت إليه أعلمه أن الناس معه ، ولا أراه إلا مقبلاً » ..

هذا رأي ابن عقيل ، وهذا هو الموقف في العراق ، فما موقف الصحابة وأهل الرأي في مكة المكرمة ؟

* قال عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي : لما قدمت كتب أهل العراق الى الحسين وتهيأ للمسير إلى العراق ، أتيته فدخلت عليه وهو بمكة، فحمدت الله واثنيت عليه ، ثم قلت : أما بعد ، فإني أتيتك يا ابن عم لحاجة أريد ذكرها لك نصيحة ، فإن كنت تستنصحني وإلا كففت عما أريد أن أقول ، فقال: قل، فوالله ماأظنك بسيىء الرأي ، ولا هوٍ للقبيح من الأمر والفعل[1] ، قال : قلت له : إنه قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق، وإني مشفق عليك من مسيرك،إنك تأتي بلداً فيه عماله وأمراؤه،ومعهم بيوت الأموال،وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار **ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه ،** فقال الحسين : جزاك الله خيراً يا ابن عم ، فقد والله علمت أنك مشيت بنصح، وتكلمت بعقل ، ومهما يقض من أمر يكن • أخذت برأيك أو تركته ، فأنت عندي أحمد مشيرٍ ، وأنصح ناصح •

* وقال عبد الله بن عباس للحسين : يا ابن عم ، إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبيّن لي ما أنت صانع ؟ قال الحسين : إني قد أجمعت المسير في أحد يوميَّ هذين إن شاء الله تعالى ، فقال له ابن عبّاس ، فإني أعيذك بالله من ذلك ! أتسير الى قوم قد قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوّهم ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعمّاله تجبي بلادهم ، فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغرّوك ويكذبوك ، ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك ، فقال له الحسين : وإني أستخير الله وأنظر ما يكون •

ثم عاد عبد الله بن عباس ليقول للحسين : يا ابن عم إني لا أتصبّر ولا أصبر،

---

(١) هذا في الطبري : وفي ابن الاثير : « فوالله ما استغشك ، وما أظنك بشيء من الهوى » •

إني أتخوّف عليك في هذا الوجه الهلاكَ والاستئصال ، إن أهلَ العراق قوم غُدُر ، فلا تقربنّهم . أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإنْ كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ، ثم أقدم عليهم ، فإن أبيْتَ إلاّ أن تخرج فسر الى اليمن فإن بها حصوناً وشِعاباً ، وهي أرضٌ عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس في عُزْلة ، فتكتب الى الناس وترسل ، وتبث دُعاتك ، فإني أرجو أن يأتيكَ عند ذلك الذي تحبّ في عافية ،

فقال له الحسين : يا ابن عمّ ، إني والله لأعلم أنك ناصحٌ مشْفِق ، ولكني قد أزمعت على المسير ، فقال له ابن عباس : فإن كنتَ سائراً فلا تسِرْ بنسائك وصبْيَتِك ، فوالله إني لخائف أن تُقتَل كما قُتِل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه ، ثم قال ابن عباس : لقد أقررتَ عينَ ابنِ الزبير بتخلّيكَ إياه الحجازَ والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك ، والله الذي لا إله إلا هو لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمعَ عليّ وعليك الناسُ أطعتَني لفعلتُ ذلك .

* ولقي الحسين رضي الله عنه الفرزدق بن غالب الشاعر، فقال الفرزدق: أعطاك الله سُؤْلَك وأملك فيما تحب ، فقال له الحسين : بَيِّنْ لنا نبأ الناس خلفك[1] ، فقال له الفرزدق : من الخبير سألتَ ، **قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بني أمية ،** والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء ، وكل يوم ربّنا في شأن ، إن نزل القضاء بما تحب فنحمد الله على نَعمائه ، وهو المستعان على أداء الشكر ، وإن حال القضاء دون الرّجاء ، فلم يَعتدِ من كان الحقّ نيته ، والتقوى سريرته .

* ولما خرج الحسين من مكة المكرمة كتب عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قائلا له : « أما بعد ، فإني أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي ، فإني

(١) كان الفرزدق آتيا من العراق ، ولقي الحسين في مكان اسمه « الصِّفاح » ، وهو موضع بين حُنَيْن وأنصاب الحرم على يسرة الداخل الى مكة من مشاش ، وقال الفرزدق في هذه المناسبة :

لقيت الحسين بأرض الصفاح عليه اليلامق والدرق

« راجع معجم البلدان ، ج : ٣ ، ص : ٤١٢ » .

مُشفِق" عليك من الوجه الذي توجهت له أن يكون فيه هلاكُكَ واستئصالُ أهلِ بيتك ، إن هلكتَ اليومَ طفىء نورُ الأرض ، فإنك عَلَمُ المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل فإني في أثر الكتاب والسلام » .

وقام عبد الله بن جعفر الى عمرو بن سعيد بن العاص ، عامل يزيد على مكة ، فكلّمه ، وقال : اكتبْ الى الحسين كتاباً تجعل له فيه الأمان ، وتمنّيه فيه البر والصلة ، وتوثق له في كتابك ، وتسأله الرجوع لعله يطمئن الى ذلك فيرجع ، فقال عمرو بن سعيد : اكتب ما شئت وأتني به حتى أختمه ، فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب ، ثم أتى به عمرو بن سعيد فقال له : اختمه ، وابعثْ به مع أخيك يحيى بن سعيد ، فإنه أحرى أن تطمئن نفسُه إليه ، ويعلم أنه الجدّ منك ، ففعل .

فلحق الحسين يحيى وعبد الله بن جعفر ، فأقرآه الكتاب ، وجهدا به ، فاعتذر الحسين وقال : إني رأيتُ رؤيا فيها رسول الله ﷺ ، وأمرت فيها بأمر أنا ماضٍ له ، عليّ كان أو لِيَ .

* أما عبد الله بن الزبير فقد قال للحسين : ما أدري ما تركنا هؤلاء القوم وكفّنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين ، وولاة هذا الأمر دونهم ! خبّرني ما تريد أن تصنع ؟ فقال الحسين : واللهِ لقد حدثتُ نفسي بإتيان الكوفة ، ولقد كتب الى شيعتي بها وأشراف أهلها ، واستخير الله . فقال له ابن الزبير : أما لو كان لي بها مثلُ شيعتك ما عدلتُ بها .. ولكنه عاد فقال : أما إنك لو أقمتَ بالحجاز ثم أردتَ هذا الأمر هاهنا ما خُولفَ عليك إن شاء الله . ثم قام ابن الزبير فخرج فقال الحسين : ها إنّ هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز الى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر معي شيء ، وأن الناس لم يعدلوه بي ، فودّ أني خرجت منها لتخلو له .

وقال ابن الزبير في لقاء آخر للحسين : إن شئتَ أن تقيم أقمت فولّيتَ هذا الأمر ، فآزرناك وساعدناك ، ونصحنا لك وبايعناك ، فقال له الحسين : إن

أبي حدثني أن بها كبشاً يستحل حرمتها ، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش ، فقال له ابن الزبير : فأقم إن شئتَ وتوليني أنا الأمر فتطاع ولا تُعصى ، فقال الحسين : وما أريد هذا أيضاً[1] .

هكذا كان الموقف في مكة المكرمة ، الكل ينصح بعدم الخروج ، بل إن أبا سعيد الخدري قال : « غلبني الحسين على الخروج ، وقد قلت له : اتق الله ، والزم بيتك ، ولا تخرج على إمامك » ، وكتبت إليه عمرة بنت عبد الرحمن المحدثة تعظم مايريد أن يصنعه ، وتأمره بلزوم الجماعة[2] .

ولم يحسن الخروج الى الحسين إلا ابن الزبير ليخلو له الجو في الحجاز ..

سار الحسين الى العراق ، وبلغه وهو في طريقه خبر مقتل ابن عمه مسلم بن عقيل ، فأثناه ذلك ، واعتزم العودة الى مكة ، لكن إخوة مسلم قالوا : والله لا نرجع حتى نصيب بثأرنا أو نقتل فقال : « لا خير في الحياة بعدكم » .

وفي كربلاء .. كانت الواقعة ، قُتِل رجال الحسين عن بكرة أبيهم ، وهم حوالي اثنين وسبعين رجلاً ، وقتل الحسين معهم . وانتهت الموقعة بشكل يدعو للأسف والضنى .. بتحريض من شَمِر بن ذي الجوشن ، الذي اقنع عبيد الله بن زياد بضرورة حسم الموقف .

لقد استشهد الحسين رضي الله عنه ، واستشهد معه رجال أخيار من آل البيت رضوان الله عليهم ، وكانت هزيمة مازلنا نعيش آثارها . فلماذا هزم الحسين؟ ولماذا انهزم من معه ؟

الحقيقة تقول : لم ينهزم الحسين ومن معه ، بل جاهدوا حتى آخر رجل منهم . قال الحُرُّ بن يزيد التميمي وهو في خيله يقابل الحسين[3] : يا حسين ، إني أذكركَ اللهَ في نفسك ، فاني أشهد لئن قاتلت لتُقتلن ، ولئن قوتلتَ لتهلكنّ

(١) النصوص السابقة كلها في « الطبري » ، ج : ٥ ، ص : ٣٨٢ وما بعدها .
(٢) تاريخ الاسلام للذهبي ، ج : ٢ ، ص : ٣٤٢/٣٤٣ .
(٣) كان الحر مكلفا بمراقبة الحسين حتى يأتي أمر ابن زياد أو يزيد .

فيما أرى ، فقال له الحسين : أفبالموت تخوفني ! وهل يعدو بكم الخَطْب أن تقتلوني ! ما أدري ما أقول لك ! ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه ، ولقيه وهو يريد نُصرةَ رسول الله ﷺ ، فقال له : أين تذهب ؟ فإنك مقتول ، فقال :

سأمضي وما بالموتِ عارٌ على الفتى	إذا ما نَوَى حقّاً وجاهدَ مسلما
وواسى رجالاً صالحين بنفسه	وخالف مَثْبُوراً وفارَق مجْرِما
فإن عِشْتُ لم أندم وإن مت لم أُلَمْ	كَفَى بك ذُلاً أن يعيش وترغما[1]

لم تنقص الحسين ومن معه شجاعة ، فما بال ابن زياد ينتصر ؟

إن كثرةَ عدد جيش ابن زياد عامل من عوامل النصر .. لقد واجه الحسين رضي الله عنه باثنين وسبعين رجلاً ، أكثر من أربعة آلاف من أهل الكوفة .

أما الذي جعل هذه الفئة القليلة تقتل ، فهو خذلان أهل الكوفة ، وتقاعسهم عن نصرة الحسين ، وتنكرهم لمراسلاتهم ووعودهم .. فلنقرأ هذه النصوص ، ففيها يتضح سبب هزيمة الحسين ، ومنها يظهر سبب انتصار ابن زياد .

قال أبو مخنف : وحدّثني محمد بن قيس أن الحسين أقبل حتى إذا بلغ الحاجر من بطن الرُّمَّة بعث قيس بن مُسهِر الصيداوي إلى أهل الكوفة ، وكتب معه إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين ، سلامٌ عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن كتابَ مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم ، واجتماع ملئكم على نصرنا ، والطلب بحقّنا ، فسألتُ الله أن يُحسن لنا الصُّنع ، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر ، وقد شخصتُ إليكم من مكة يومَ الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة يوم التروية ، فإذا قدم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم

(١) الابيات في الجزء : ٥ ، ص : ٤٠٤ من الطبري ، وبعضها في ابن الاثير .

وجدّوا ، فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

فهل نصر الكوفيون الحسين كما وعدوه !!

* قال سعد بن عبيدة : إن أشياخاً من أهل الكوفة لوقوف على التل يبكون ويقولون : **اللهم أنزل نصرك ، فقلت : يا أعداء الله ، ألا تنزلون فتنصرونه !!**

* وقال عبد الله بن سليم ، والمذري بن المشمعل الأسديّان للحسين قبيل وصوله الكوفة : نَنشُدك الله في نفسك وأهل بيتك إلا انصرفتَ من مكانك هذا ، **فانه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة ، بل نتخوف أن تكون عليك !**

* كما جاء الحسين وهو بزُبالة[1] كتابٌ من بعض رجاله وأقربائه جاء فيه:

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فانه قد أتانا خبر فظيع ، قُتل مُسلم بن عقيل وهانىء بن عروة وعبد الله بن بُقْطُر ، **وقد خذلتنا شيعتنا ،** فمن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف ..

* قال لَوْذان أحدُ بني عكرمة إن أحدَ عمومته سأل الحسين رضي الله عنه : أين تريد ؟ فحدّثه ، فقال له : إني أنشدُك الله لما انصرفت ، **فوالله لا تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف ، فان هؤلاء الذين بعثوا اليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ، ووطؤوا لك الأشياء ، فقدمت عليهم كان ذلك رأياً ،** فأما على هذه الحال التي تذكرها فإني لا أرى لك أن تفعل .

* قال الحسين رضي الله عنه لأهل الكوفة : « أيها الناس ، إنها معذرة الى الله عز وجل وإليكم ، إني لم آتكم حتى أتتني كُتُبكم ، وقدمتْ رُسُلكم أن اقدمْ علينا ، فإنه ليس لنا إمام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى ، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم ، فإن تُعطوني ما أطمئنّ إليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم

---

(1) زبالة : منزل بطريق مكة من الكوفة ، وهي قرية عامرة فيها حصن وجامع لبني أسد ، قالوا : سميت زبالة بزبالها الماء ، أي بضبطها له ، وأخذها منه . « معجم البلدان ، ج : ٣ ، ص : ١٢٩ » .

مصرَكم ، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفتُ عنكم إلى المكان الذي أقبلتُ منه إليكم » •

فماذا كان جوابهم •• لا شيء •• **سكتوا جميعاً عنه** •

* وقال الحسين لهم أيضاً : « •• قد أتتني كتبكم ، وقدمت علي رُسُلكم ببيعتكم ، أنكم لا تُسلموني ولا تَخذلوني ، فإنْ تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، فأنا الحسين بن علي ، وابن فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ ، نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، فلكم فيَّ أسوة ، **وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتي من أعناقكم ، فلعمري ما هي لكم بنكر ، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ، والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم** ، ومَن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيُغني الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » •

* وسأل الحسين نفراً قدموا من الكوفة : أخبروني خبر الناس وراءكم • فقالوا : أما أشراف الناس فقد أعظِمتْ رِشوَتهم ، ومُلئت غَرائزهُم ، يُستمال ودهم ، ويستخلص به نصيحتهم ، فهم ألْبٌ واحدٌ عليك ، وأما سائر الناس بعد ، **فإن أفئدتهم تهوي إليك ، وسيوفهم غدا مشهورة عليك** •

حتى أنهم أنكروا كتبهم إلى الحسين ، وقد كانت معه في خُرْجين يحملهما حيث سار ، وحتى أن عمر بن سعد بعث الى الحسين رضي الله عنه عَزْرةَ بنَ قيس فقال : ائته فسله ما الذي جاء به ؟ وماذا يريد ؟ وكان عزرة ممن كتب الى الحسين ، فاستحيا منه أن يأتيه ، فعرض ذلك على الرؤساء الذين كاتبوه ، فكلّهم أبى وكره مقابلة الحسين ••

ـ لقد استشهد الحسين رضي الله عنه لخذلان أهل العراق له •• قلوبهم مع الحسين ، وسيوفهم مع بني أمية ، أفئدتهم تهوي الى الحسين ، وسيوفهم مشهورة عليه •• وأرسل رأس الحسين مع أهله الى يزيد ، وفيهم ابنه علي ، طفل يكاد يبلغ مبلغ الرجال •• ولما رأى يزيد الحسين وأهله ، دمعت عيناه وقال:

قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن سمية « عبيد الله بن زياد» ، أما والله لو أني صاحبه «يقصد الحسين» لعفوت عنه ، فرحم الله الحسين» .

ثم أدخل يزيد أهل بيت الحسين الى حرمه ، فتلقاهم نساء يزيد بالبكاء الشديد ، وأقاموا المناحة على الحسين ثلاثة أيام ، وكان يزيد لا يتناول طعاماً إلا دعا علي بن الحسين إليه . ثم سرّح يزيدُ عليَّ بن الحسين وأهله الى المدينة المنورة ، وأمر بحسن خدمتهم في الطريق ، واستمر يوصي خيراً بعلي حتى آخر خلافته .

* رحم الله الحسين ، لقد أظهر إيماناً كاملا بقضاء الله عز وجل وقدره ، وصبراً واحتساباً وشجاعةً يندر أمثالها . ورحم أهل بيته وأصحابه ، لقد أبدوا النصر للحسين والمواساة له بالنفس وكراهية الحياة بعده ، لقد قاتلوا بين يديه عن بصيرة مالم يشاهد مثله .

ولن ينفع الكوفيين ندمُهُم بعد تنكرهم للحسين ومن معه .. لن ينفعهم ندمهم على ما فرّطوا في حق الحسين ، وخذلانهم إياه ، وعدم إغاثتهم له حتى قتل بينهم وهم ينظرون .

صحيح أنهم شكلوا فرقة سُمِّيت « التوابون » بإمرة سليمان بن صُرَد سنة ٦٥ للهجرة ، تابوا مما فعلوا .. وتحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم في الأخذ بثأر الحسين ومقاتلة من قاتله وقتله .. ولكن .. ماذا يفيد الحسين ذلك؟! وماذا نفع الحسين وآله ندمهم ؟ وماذا عملت توبتهم ؟!!!

ولله أمر من أعطى ثم غدر .. « قل هل نُنَبِّئُكُم بالأخسرينَ أعمالاً ؟ الذين ضَلَّ سَعْيُهُم في الحياة الدنيا وهم يَحْسِبُون أنَّهم يُحْسِنونَ صُنعا » ، « الكهف : ١٠٣ و ١٠٤ » ..



الحمّية الجاهليّـة

★ « اذ جعل الـذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » .

« الفتح : ٢٦ »

قام النظام القبلي في الجاهلية على مبـدأ الغزو والنهب والثـأر ، وكانت العصبية القبلية ، أو الحمية الجاهلية ، تفرض مسـاندة الغازين ومناصرتهم ، والتغني ببطولاتهم وغزواتهم في الأسواق انطلاقاً من مبدأ : انصر أخاك ظالماً أو مظلومـا .

وجاء الإسلام لينهي الحمية الجاهلية ، ويحل أخوة الدين محلها : « إنمـا المؤمنون إخوة » .

لقد أثارت مجزرة الحسين رضي الله عنه أهل الحجاز ، فحاصر أهل المدينة المنورة بني أمية في دار مروان بن الحكم ، فأرسلوا كتاباً الى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان يستغيثون : إنا قد حُصِرْنا في دار مروان بن الحكم ، ومُنِعنا الماء العذب ، ورمينا بالحبوب ، فياغوثاه ياغوثاه .

وما أن قرأ يزيد هذا الكتاب ، حتى ثارت ثائرته ، وأخذته الحمية الجاهلية وقال : لا خير في العيش بعدهم ، فسيَّر مسلم بن عقبة في اثني عشر ألفاً مـن الرجال ، وأوصاه إن كان بنو أمية قد قتل منهم أحد فجرد السيف واقتل المقبل والمدبر ، وأجهز على الجريح ، وانهبها ثلاثاً ، واستوص بعليّ بن الحسين .

وهي وصية يأباها الإسلام ، وتظهر تعصّب يزيد لقومه ، إنه خليفة المسلمين عامة ، وليس لبني أمية فقط ، وموقفه هذا موقف فتى يتعصَّب لقومه ، لا موقف خليفة لكل المسلمين .

وكانت موقعة الحرّة ، حيث دافع أهل المدينة المنورة بشجاعة رائعة ، وأدوا من ضروب البطولة الشيء الكثير ، لكنهم غُلبوا على أمرهم ، حين خانهم بنو فزارة ، إذ انقلبوا عليهم ، وأتوهم من خلفهم ، فاضطرب أهل المدينة ثم استسلموا ، وقتل في المعركة من القرشيين والأنصار ثلاثمائة وستة رجال ، وفعل يزيد بالمدينة المنورة مافعل[1] !!

* * *

ومات يزيد ، وخلفه ابنه معاوية الثاني ، الذي توفي في سنة خلافته ، فهاج عرب الشام ، الذين كانوا عصب الدولة الأموية وقوتها ، بفضل تماسكهم ووحدة كلمتهم ، ولكن هذه الوحدة تفككت ، وانحازت اليمنية الى مروان بن الحكم ، واجتمعت القيسية بزعامة الضحاك بن قيس الفهري بمرج راهط ، وبايعت عبد الله بن الزبير .

استطاع مروان بن الحكم أن يهزم الضحاك بن قيس في المحرم سنة ٦٥ هـ ، وذلك في موقعة مرج راهط ، فأذكت هذه الموقعة نار العصبية ليس في الشام وحدها ، بل في سائر الأمصار ، وظهر النزاع بصورة متصلة بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، أو بين اليمانية والقيسية ، وامتد لهيب العصبية الى أقاصي البلاد التي وصلتها فتوح المسلمين ، على شكل حروب أهلية .

عادت العصبية الجاهلية القديمة ، التي قضى الإسلام عليها ، عادت في أشد

---

(١) راجع « الدولة الاموية » للدكتور يوسف العش .

مظاهرها تغلي كالمرجل ، يشبه شكلها الظاهري عهدها في الجاهلية ، بالأشعار تارة، وبالاغتيالات والغزو والنهب تارة أخرى •

وتوفي مروان بن الحكم في ١٥ جمادى الآخرة عام ٦٥ هـ ، فخلفه ابنه عبد الملك ، في دولة تمزقها العصبية القبلية التي دأب الاسلام على سحقها ، وأشرفت دولة بني أمية على الزوال ، لولا أن أتاح الله لها عبد الملك ، الذي يعتبر بحق المؤسس الثاني للدولة الأموية ، لما امتاز به من رجاحة العقل ، والقدرة على تصريف الأمور ، فانتشل الدولة الأموية من الفوضى ، وأقام صرح مجدها على أسس لم يسبقه من جاء قبله من الخلفاء إليها •

روى المسعودي أن عبد الملك بن مروان سار سنة ٦٦ للهجرة على رأس الجنود الشامية لقتال المختار بن أبي عبيد ، وبينما هو في الطريق ، أتاه في إحدى الليالي خبر مقتل عبيد الله بن زياد وانهزام جنده ، وأتاه في تلك الليلة أيضاً مقتل القائد الذي أرسله لحرب عبد الله بن الزبير بالمدينة المنورة ، ثم جاءه دخول جند ابن الزبير أرض فلسطين ، ثم جاءه خبر مسير امبراطور الروم ونزوله المَصِّيصة في طريقه الى الشام ، ثم جاءه أن عبيد دمشق وأوباشها خرجوا على أهلها ، وأن المسجونين فيها فتحوا السجن وخرجوا منه ، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك وغيرهما ، إلى آخر ماهنالك منأخبار السوء التي تذهب بعقل الحليم ، وتبعث في النفس اليأس والقنوط •

كان عبد الملك ــ على الرغم من هذا كله ــ رابط الجأش ، شديد الإيمان بكفايته ومقدرته ، فلم يُرَ في ليلة قبلها أشد ضحكاً ، ولا أحسن وجهاً ، ولاأبسط لسانا ، ولا أثبت جناناً من تلك الليلة تجلداً وثباتاً • وكان أخطر مافي الأمر ، المختار بن أبي عبيد في العراق ، وعبد الله بن الزبير في الحجاز •

* استغلّ المختار بن أبي عبيد ظروف العراق ، فدعا السبئية إليه ، علماً أن علياً كرم الله وجهه استبعدهم ، ولم يقبل الحسن والحسين بأقوالهم ، فصارت

السبئية تدعو سراً لتقويض المسلمين وملكهم ، فلجأوا الى الموالي والى الفرس وقد أعلمهم المختار أنه يريد التسوية بينهم وبين العرب ، بل وأرضاهم بأن تكون الدعوة الى رجل من آل البيت ، له نسب الى الفرس ، كمحمد بن الحنفية ، ذي الأم الفارسية • فقال المختار : إن محمداً بن الحنفية هو المهدي الذي سيملأ الأرض عدلاً ، بعد أن يغلب الكفار ، ويردهم على أعقابهم خاسرين ، إذن كان مخطط المختار •• أنه جمع حوله الشيعة العرب والسبئية الموالي •

وأصبح المختار سيد الكوفة بلا منازع ، وكان باستطاعته ضم البصرة إليه ، لولا أن عبد الله بن الزبير شعر بخطره ، واتخذ منه موقفاً حاسماً ، فأرسل أخاه مصعباً ، وكان فتى في مقتبل العمر ، إلا أنه شديد البأس ، سريع في أعماله •• فاستطاع مصعب ، يعاونه المهلب بن أبي صفرة ، أن يهزم المختار ويقتله • وهكذا ساد مصعب في العراق ، ولكن بقيت له متاعبه ، فقد احتوى جيشه على عدد من الشيعة الذين أعمل القتل فيهم عندما كانوا في جيش المختار ، فكانوا يحقدون عليه •

وساد عبد الملك بن مروان في الشام ، وله متاعبه أيضاً ، لقد أضاع قسماً من جيشه مع ابن زياد وهو يواجه الروم ، لقد استفاد الروم من الصراع بين المسلمين ، واستغلوا الحرب الأهلية ، فقوي شأنهم ، وتطاولوا على الحدود الشمالية للدولة الأموية • كما ظهر زفر بن الحارث مع قبيلته القيسية ، يطالب بالثأر من الكلبية بعد معركة مرج راهط ، علماً أن الكلبية تمثل أحسن الرجال عند عبد الملك • على أن عبد الملك رجل من الدهاة • فماذا عمل حتى استتب له الأمر في العراق والحجاز والثغور ؟

١ ـ كانت رسائله تترى الى أهل العراق لتنفرط عقدهم عن مصعب بن الزبير ، في حين كان يجمع هو فرقه ويرتبها •

٢ ـ وهيَّأ الصلح مع الروم ، وأطمعهم بمال يدفعه إليهم ليأمن جانبهم مؤقتاً •

٣ ــ واتفق مع زفر بن الحارث ، فأعطاه الأمان ، وأدخله في جماعته •

وسار عبد الملك الى حرب مصعب ، والتقى الجيشان « بدير الجاشليق » . واستمال عبد الملك قادة مصعب إليه ، لقد أخذهم بالدهاء وبالمال وبالامارة •• فتفرّق رجال مصعب عنه ، وأصبح فإذا هو في الميدان مع عدد قليل من رجاله ، فقاتل معهم حتى هلكوا ، ثم سار عبد الملك الى الكوفة ودخلها ، فبايعه أهلها ، كما بايعه أهل البصرة أيضا ، وجاء إليه المهلب الذي كان يحارب الخوارج فبايعه وانضم بجيشه إليه •• وبذلك تمكّن عبد الملك بن مروان من العراق ، وبقي عليه الحجاز وفيه عبد الله بن الزبير متحصّناً في مكة ، فأرسل عبدُ الملك لعبد الله ابن الزبير الحجّاج بن يوسف الثقفي ، وأمره أن يأخذه بالحيلة ، وأن يفعل معه كما فعل بمصعب ، يراسل جماعته ، ويعطيهم الأمان ، ويفرّقهم من حوله •

وضايق الحجّاجُ عبدَ الله بن الزبير مضايقـة كبيرة ، ورأى أصحاب ابن الزبير المؤونة ترد من الشام الى جيش الحجّاج أصحاب ابن الزبير وأغراهم ، فانتقل قسم كبير منهم إليه ، وبقي مع ابن الزبير نفر قليل من أصحابه ، وأتى اليوم الذي كان لا بد فيه من أحد أمرين :

ــ إما أن يستسلم ، وإما أن يُقتل •

فدخل على أمّه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما واستنصحها ، فقالت له فيما قالت : إن كنت ترى أنك على حق فمت في سبيل حقك ، فقال : الرأي ما رأيت ، فخرج ولم يلبس درعاً ، وقاتل حتى قتل ، وبمقتله انتهت السياسـة الراشدية ، وانتهت معها سياسة الحجاز وتداعى شأنها •

لقد انتصرت سياسة ابن مروان على سياسة العراق والحجاز ، لقد كان انتصار ابن مروان على ابن الزبير انتصار الجيش المنظم ، المحدد هدفه ، على الفوضى •• إذ لم يكن في الحجاز قواعد واضحة مبيّنة ومفصّلة في الحكم •

كما انتصر سخاء عبد الملك بن مروان على حرص عبد الله بن الزبير ، لقد كان ابن الزبير مع حبّه للرئاسة والإمارة حريصاً جداً على الأموال .

ولقد لعب عبد الملك دور الوسيط بين قيس وأعدائها فيما بعد ، ولم يمل الى طائفة دونٍ أخرى ، بل سعى الى درء الفتنة متخذاً موقف السيد الذي يعاقب الطرفين ويصلح بينهما ، فتسامى فوق العصبية التي سببت الحرب الأهلية ، فهدّأ بذلك الوضع وانهى تحيّز الدولة ــ ولو مؤقتاً ــ الى أية فئة .

وما كاد عبد الملك ينتهي من حروبه مع ابن الزبير ، حتى أسرع في توجيه جيشه الى حرب الروم ، وبذلك أوقف تطاولهم وأنهاه ، هذا التطاول الذي ما كان لقوة في دولة الروم وجيشها ورجالاتها ، بل كان بسبب الخلافات الداخلية بين المسلمين ، حتى دفع عبد الملك أتاوة للروم ليأمن جانبهم مؤقتاً . وبعد انتهاء حرب ابن الزبير ، عادت الروم الى حجمها الحقيقي ، قزماً أمام وحدة الصف الداخلي في دولة الاسلام ، فأوقف عبد الملك دفع المال إليهم ، وردّهم على أعقابهم ، حتى أنه أوقف خصامهم فيما بينهم ، وقضى على دابر الفتن بين صفوفهم .

لقد قضى عبد الملك على الفتنة بحزم ، قال العيني : « كان يقال معاوية أحلم ، وعبد الملك أحزم » .

إن الحرب الأهلية التي قامت بين القيسية واليمانية انهزام داخلي . انهزام في وحدة الصف الداخلي ، وهدر لقوى لم توضع في مجالها الصحيح . لقد توقفت الفتوح عندما أصبح بأس المسلمين بينهم شديداً ، بل تطاول عليهم عدوّهم . وما كادت الفتنة تنتهي ، والحرب الأهلية تتوقف ، حتى وجّه عبد الملك هذه القوى الى الفتوح ، فدكّت الحصون ، واخترقت البلدان ، وبلغ عبد الملك بهذه القوى ذاتها ، أقصى ما بلغت إليه الفتوح الإسلامية ، إذا استثنينا فتوح العثمانيين في أوربة الشرقية . لقد بلغ السند ، وما وراء النهر ، وشمال إفريقية ، والقفقاس وأرمينية ، وبلاد الروم ، والأندلس ...

وعلى الرغم من القيادات المختلفة التي كانت تقود الفتوح ، فإن وحدة الصف رسمت خطوطاً موحدة في السَّير ، وسياسة واضحة مدروسة ، وأولهما السرعة في العمل ، والانتقال من فتوح الى فتوح أخَرٍ ، لتبليغ رسالة الله عز وجل • فالفتوح الرائعة التي كانت أيام عبد الملك والوليد ، تأخرت زمناً غير يسير ، بسبب الحرب الأهلية ، التي أثارتها العصبية الجاهلية •

العصبية في عرف الاسلام خروج على شرع الله تعالى ، وخروج على دعوة توحيد الناس والتآلف بينهم : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، « وما أرسلناك إلا للناس كافة » •

والتفكير في القبيلة جر الى العصبية ومجانبة العدل في الحكم كما فعل يزيد في استباحته المدينة • كل ذلك كان له الأثر في عودة العصبية التي شتت القوى وشغلتها عن وجهتها في الفتوح ، فكانت نكسة وهزيمة •



العنصرية والعصبية

✶ « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

قرآن كريم .

سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ ، وأرجع المؤرخون أسباب سقوطها الى أسباب عديدة ، منها :

ــ تولية العهد لاثنين ، تلك الخطة التي سنَّها مروان بن الحكم ، فظهر التنافس بين أفراد البيت المالك على أثرها . وفي رأينا قد يكون لولاية العهد لاثنين أثر" خطير على كيان الدولة الأموية أوصلها الى نهايتها ، ولاية العهد التي قد توصل الى الحكم أحياناً من ليس أهلاً له ، أضحت أكثر خطراً ووبالاً على كيان الدولة ، فسارعت بها إلى الهزيمة .

ــ والروح العصبية هي السبب الثاني الذي جعله المؤرخون من أسباب سقوط دولة بني أمية وهزيمتها . تلك الروح التي بُعِثَت بين القبائل العربية عقب وفاة يزيد بن معاوية ، وهذه الروح أثبت التاريخ أنها تطوى وتنطفىء وتتلاشى عند تطبيق الاسلام كاملاً ، أي عند العمل به كُلاً ومن كل جوانبه ، وتظهر وتقوى كلما ابتُعِدَ عن الإسلام .

فالخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز ، الذي كان مسلماً حقاً في

كل أحكامه ، وفي كل تصرفاته وأعماله ، أصلح ما أفسده من سبقه من خلفاء بني أمية ، ولذلك قضى على كل ثورة أو حركة مناوئة لمركز الخلافة بعد أن نال رضاء الجميع ، كيف لا .. وهو الذي لم يتعصَّب لقبيلة دون أخرى ، ولم يُنَصِّب على الأمصار عاملاً إلا لكفايته وإيمانه وعدالته ؟.

لقد كانت فترة الهدوء التي مرّت بها الدولة الأموية مؤقتة زمن عمر بن عبد العزيز ، إذ سرعان ما عادت العصبية والعنصرية بعده تفتك في جسم الدولة الأموية .

وباعتبار ما سبق ، فإن العصبية كانت سبباً وجيهاً من جملة أسباب سقوط دولة الأمويين ، وهزيمتها أمام العباسيين .

فقد بدأ التعصب للعرب يظهر على الألسنة ، وفي نتاج الفكر ، ولمس الفُرْس هذا التعصب أيام الأمويين ، عندما لم يساووا بينهم وبين العرب ، كما لمسوا روعة نجاح فكر عمر بن عبد العزيز عندما ساوى بين العرب وغيرهم ، ولكن الحال تبدلت بعد عمر بن عبد العزيز . فمن الطبيعي أن يحنق الموالي على الأمويين ، ومن الطبيعي أنْ يتلمسوا فرصاً للايقاع بهم ، فلما نشطت الدعوة العباسية ، انضموا اليها لينالوا حقوقهم التي هُضِمت . ولقد فطن العباسيون حقاً الى ما يكمن في نفوس الموالي نحو بني أمية ، فاستعانوا بهم في نشر الدعوة العباسية في خراسان .

لقد جعل الأمويون أهل الشام في قمة الهرم ، فعلى كاهلهم قامت الدولة ، يليهم العربي غير الشامي في الأمصار ، ثم الموالي في القاعدة ، يليهم الذميون .

لذلك .. يمكن القول إن الأمويين أقاموا دولة إسلامية عربية ، اسلامية الفكر والعقيدة ، عربية العِرْق واللغة ، مما سبب تعصُّباً للعرب ، وسبب عداوة الموالي ، وطبعهم بطابع العداء الشديد للأمويين .

فالسبب الأعظم ، والعامل الأكبر لزوال حكم بني أمية ، هو تعصبهم للعرب

والعربية ، ونظرتهم الى الموالي نظرة ازدراء ، مما أيقظ الفتنة بين المسلمين ، وبعث روح الشعوبية .

ولعل سبب نشوء هذا التعصّب للعنصر العربي ، ولكل ما هو عربي ، اعتقاد العرب أنهم أفضل الأمم ، وفي هذا مخالفة صريحة لقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

والآية التي خاطبت المؤمنين بأنهم خير الأمم : « كنتم خير أمّة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » ، « آل عمران : ١١٠ » ، آية وضحت بجلاء متى نكون خير أمة :

١ ــ « تأمرون بالمعروف » .

٢ ــ « وتنهون عن المنكر » .

٣ ــ « وتؤمنون بالله » ..

إنها شروط ثلاثة ، وليس من المعروف التعصب للعرب واحتقار الموالي ، وهذا يعني أيضاً أنه لا عصبية لعربٍ على موالٍ ، ولا لأمةٍ على أخرى بحسب شرع الله وقوانينه ، وبمخالفة هذه القوانين الإلهية الثابتة المنظمة لحياة البشر ، تكون الهزيمة ، وقد كانت .

ولم تلبث الرايات السود ، رايات العباسيين أن باغتت الرايات البيض ، رايات بني أمية ، وقضت عليها ، ويعتبر زوال الرايات البيض ، قضاءً على النفوذ العربي ، الذي تعصّب له الأمويون ، وانحازوا اليه .

بطانة السّوء

✶ قال صلى الله عليه وسلم : « ما استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم من عصم الله »(١) .

ولي المعتصمُ الخلافة عام ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ، وكانت أمه تركية(٢) ، فاعتمد على الأتراك ، واتخذهم حرساً له ، بل أسند إليهم مناصب رفيعة في الدولة العباسية ، فكان المعتصم أول خليفة عباسي استعان بالأتراك ، وأول من أسند إليهم مناصب الدولة بعد أن جلبهم من سمرقند وفرغانة وغيرها من النواحي ، واستكثر المعتصم من الأتراك ، واتخذ من حسن هندامهم ، وجمال منظرهم وشجاعتهم ، وتمسكهم بأهداب الإسلام سبباً للاعتماد عليهم ، فولاهم حراسة قصره ، وقلدهم الولايات الكبيرة ، وما لبث أن تعاظم نفوذهم(٣) ، وذُكِرَت أسماؤهم بالخطب ، ونُقِشَت أسماؤهم على السكّة .

ولم يلبث الأتراك أن أصبحوا آفة على أهل بغداد ، فعانوا من عنتهم وجورهم شيئاً كثيراً ، حتى قال المسعودي : « واستفحل خطرهم حتى شكا المعتصم منهم في آخر حياته » .

---

(١) مسند الامام احمد بن حنبل : ٨٨/٣ عن ابي سعيد الخدري .

(٢) ذكرها المسعودي في مروج الذهب ج ٤ ، ص ٥٣ باسم مارية ، والطبري ج ١١ ، ص ٩ ، السيوطي ص ٣٣٣ باسم ماردة .

(٣) راجع المسعودي في مروجه ج ٤ ، ص ٥٤ وما بعدها . والسيوطي في تاريخ الخلفاء ص : ٣٣٥ ومابعدها .

وبسبب ايذائهم للعامة في بغداد ، وضيقهم بهم ، تحول المعتصم من بغداد إلى « سُرَّ من رأى » . وكان من قوة شكيمة المعتصم أن حدّت الى حد ما من نفوذ الأتراك ، فلما مات سنة ٢٢١ هـ / ٨٤٢ م ، وولي الخلافة بعده ابنه الواثق أخذ الأتراك يتدخلون في أمور الدولة ، حتى أصبح الواثق مكتوف اليدين ، مسلوب السلطة ، ولما ولي المتوكل الخلافة من بعد الواثق ، حاول أن يكف أيديهم ، فقتلوه ، وصار ابنه المنتصر الذي اشترك مع الأتراك في قتل أبيه ، طوع بنانهم ، وأصبحت الدولة العباسية ميداناً للفوضى والدسائس ، وغدا في أيدي هؤلاء الأتراك أمر تولية الخليفة وعزله وحبسه وقتله[1] .

وظهور العنصر التركي في الدولة العباسية ، أدى الى اخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب ، الفرس الذين كان لهم شأنهم في صدر الخلافة العباسية ، وبخاصة أيام المأمون ، والعرب الذين كان لهم شأنهم في الدولة الأموية ، وأدى كذلك الى اخماد العداء بين العلويين والعباسيين ، لأن الترك استأثروا بالأمر دون الفريقين ، ولم يحفلوا بغيرهم .. ومن هنا بدأ العامل الرئيسي في اضمحلال الدولة العباسية ، حيث بطانة السوء التي اهملت شؤون الأمة ، فظهرت الدول المستقلة وشبه المستقلة في أطراف الدولة العباسية ، كالصفارية ، والسامانية ، والغزنوية ، والعلوية بطبرستان ، والأغلبية بتونس ، والفاطمية ببلاد المغرب ، والطولونية والاخشيدية بمصر ، والزيدية باليمن ، واعلان الخلافة في الاندلس[2] .

ومن أعمال الأتراك في الدولة العباسية على سبيل المثال لا الحصر :

* اتفاقهم مع المنتصر على قتل أبيه المتوكل ، فقد دخل عليه خمسة من الأتراك في جوف الليل ، فقتلوه مع وزيره الفتح بن خاقان ، وذلك في الخامس من شوال سنة ٢٤٧ هـ .

---

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطي .

(٢) كانت من قبل امارة ، ثم أعلنت الخلافة . لقد بدأت الامارة عام ١٣٨ هـ ، وانتهت عام ٣١٦ هـ ، لتبدأ الخلافة عام ٣١٦ هـ وانتهت عام ٤٠٠ هـ ليبدأ عهد الطوائف .

* ولما ولي المنتصر صار يشتم شركاءه الأتراك ويقول : هؤلاء قتلة الخلفاء ، فتآمروا عليه ، وهمّوا به ، فعجزوا عنه لهيبته وفطنته وتحرزه . فاحتالوا عليه عند مرضه ، برشوة قدموها الى طبيبه ابن طيفور ، وقدرها ثلاثون ألف دينار ، فأشار الطبيب على المنتصر بالفصد ، ففصده بريشة مسمومة فمات[1] .

* ولما مات المنتصر اجتمع الأتراك وتشاوروا ، ومما قالوه : متى وليتم أحداً من أولاد المتوكل لا يبقى منا باقية ، فقالوا : مالها إلا أحمد بن المعتصم ، فبايعوه باسم « المستعين بالله » ، ثم تنكروا له لما قتل وصيفاً وبُغَا ، ونفى باغِرَ التركي الذي فتك بالمتوكل ، ولم يكن للمستعين مع وصيف وبُغَا أمر ، حتى قيل في ذلك :

خليفة في قفصٍ بين وصيف وبُغَا
يقول ماقالا له كما تَقول البَبَّغا

ولما تنكّر له الأتراك خاف منهم ، فترك سامراء الى بغداد ، فأرسلوا إليه يعتذرون ويظهرون خضوعهم له ، ويسألونه العودة الى سامراء ، فامتنع ، فبايعوا المعتز بالله ، وخلعوا المستعين . وذكرت كتب التاريخ صراحة أن المعتز كان مستضعفاً مع الأتراك[2] ، ولما لم يجد مالا في بيت المال يرضي به طلبات وطمع الأتراك ، اجتمعوا على خلعه ، واتفقوا مع أعداء المعتز ، فانقضوا عليه ، وجروه، وضربوه بالدبابيس ، وأقاموه في الشمس في يوم صائف ، ثم خلعوه ، وبايعوا المهتدي بالله محمد بن الواثق ، ثم أدخل الأتراكُ المعتزَّ الحمام ، فلما اغتسل عطش ، فمنعوه الماء ، ثم خرج ، فسقوه ماء بثلج ، فشربه وسقط ميتاً .

* وفي عهد المهتدي بالله ، استفحل أمر الأتراك أيضاً ، فكتب الى بكيال أن يقتل مفلحاً أحد أمراء الأتراك ، وساروا الى المهتدي وقد اجمعوا على قتله ،

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص : ٣٥٧ .

(٢) تاريخ الخلفاء ، ص : ٣٥٨ .

فقاتلهم المهتدي مع رجال مغاربة عنده ، وقتل من الأتراك أربعة آلاف ، ولكن الهزيمة حاقت به أخيراً ، فأمسك وعُذِّب حتى مات •

* وفي أيا م الراضي بالله ، كان بجكم التركي أمير الأمراء ، وقلّده الخليفة إمارة بغداد وخراسان • وكان المتصرف الآمر الناهي بلا قيود •

* وأيام المتقي بالله ، دارت حروب بين جيشه كخليفة ، وجيش تورون التركي ، واضطر الخليفة الى مصالحته على مضض ، وطلب الأخشيد من المتقي أن يسير الى مصر ، وقال له : يا أمير المؤمنين ، قد عرفت الأتراك وفجورهم وغدرهم ، فالله الله في نفسك ، سِرْ معي الى مصر ، فهي لك وتأمن على نفسك فلم يقبل المتقي ، وعاد الاخشيد الى مصر وحده •

ولما التقى بتورون التركي ، قبض تورون على المتقي ومن معه ، ثم سمل عينيه ، وأدخله مسمول العينين الى بغداد ، وقد أخذ منه الخاتم والبردة والقضيب ، وأحضر تورون عبد الله بن المكتفي وبايعه بالخلافة •

* وأيام القائم بأمر الله ، برز أرسلان التركي المعروف بالبساسيري ، فعظم أمره ، واستفحل شأنه ، حتى دعي له على المنابر ، وجبى الأموال ، وخرّب القرى ، ولم يكن القائم يقطع أمراً دونه ، ثم علم الخليفة بسوء عقيدته ، وبلغه أنه عزم على نهب الخلافة والقبض على الخليفة ، فاستنجد الخليفة بأبي طالب محمد بن مكيال سلطان الغز ، المعروف بطغرلبك ــ وكان بالرّي ــ فقدم طغرلبك ، وتجمع الأتراك حول البساسيري ، ووقع قتال بين الخليفة والبساسيري ، وقبض البساسيري على الخليفة وحبسه ، ولولا طغرلبك وجيشه الذي وصل في الوقت المناسب ، لما أطلق سراحه ، ولما بقي خليفةً في مركزه •

ورغم بطانة السوء هذه ، استطاع الناصر لدين الله احمد بن المستضيء ، أن يرجع للخلافة هيبتها ، فكان يرهبه أهل الهند ومصر ، كما يرهبه أهل بغداد تماماً ، فأحيا بهيبته الخلافة العباسية التي ماتت هبتها بموت المعتصم بن الرشيد ،

ثم ماتت من جديد بموت الناصر لدين الله ، وعادت بطانة السوء لتدق الاسفين الأخير في نعش العباسيين وفي دولتهم ، فبرزت أيام المستنصر بالله أسماء ، ولمعت ألقاب بطانة السوء : « الدويدار والشرابي » ، فلما مات المستنصر ، لم يريا تقليد الخفاجي أخا المستنصر ، لما فيه من شهامة وشجاعة وعزيمة ، وطموح في ردّ التتار الذين عسكروا وراء نهر جيحون ، لم يريا تقليد الخفاجي الذي كان يقول : لئن وليت لأعبُرن بالعسكر نهر جيحون وآخذ البلاد من أيدي التتار واستأصلهم . فلما مات المستنصر أقاما ابنه أبا أحمد المستعصم بالله ، للينه وضعف رأيه، وليكون لهما الأمر ، وليقضي الله أمراً كان مفعولا فيه هلاك الدولة العباسية ، وهلاك الألوف من أرواح المسلمين .

خافت بطانة السوء من طموح الخفاجي ، وآثروا المستعصم للينه وانقياده ليكون الأمر لهما ، وزاد الحالة سوءاً أن المستعصم ركن الى وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي ، فأهلك الحرث والنسل ، ولعب بالخليفة كيف أراد ، وراسل التتار سراً ، واتصل بهم خفية ، وناصحهم ، وأطمعهم في المجيء الى العراق وأخذ بغداد ، لانهاء الخلافة العباسية وليقيم العلقمي خليفة من آل علي ، فصار اذا جاء خبر منهم كتمه عن الخليفة ، بينما يطالع التتار بأخبار الخلافة .

ومما يذكر في هذه الفترة ، أن الصليبيين اتصلوا بالتتار ، لايقاع العالم الإسلامي ضمن فكي كماشة ، فهم يزحفون على بلاد الشام ومصر من جهة الغرب، ويشن التتار زحفاً من الشرق ، وساعد على تحقيق تلك الخطّة زوجة هولاكو المسيحية ، التي حثت زوجها على الزحف شرقاً لتدمير الاسلام .

التتار يزحفون الى مركز الخلافة العباسية ، وشرهم متزايد ، ونارهم تستعر ، والخليفة والناس في غفلة عما يراد بهم بسبب حرص الوزير العلقمي على إزالة الدولة العباسية ، ونقلها الى الطالبيين ، « والرسل في السر بينه وبين التتار » ، والمستعصم تائه في لذاته ، لا يطلع على الأمور ، ولا يدري ما يحاك

ضده ، وبسبب حاشية السوء ، والبطانة العميلة ، لا يعلم المستعصم مايبيت له من وزيره ، رأس البطانة العميلة ، والحاشية السيئة .

ويجب أن نذكر أن المستنصر والد المستعصم قد استكثر من الجند جداً ، وكان يصانع التتار ويهادنهم ويرضيهم ، متحيناً الوقت المناسب لصدهم ، ولكن الموت حال بينه وبين ما أراد ، واستخلف المستعصم ، وكان خاليا مـن الرأي والتدبير ، فأشار عليه الوزير العلقمي بتسريح غالبية الجند ، وأقنعه أن مصانعة التتار واكرامهم تفي الحاجة ، وتحقق المقصود ، ففعل المستعصم ذلك ، وركن إلى مشورته .

واستمر الوزير العلقمي بمكاتبة التتار ، وأطمعهم في البلاد ، وسهل عليهم ذلك ، وطلب أن يكون نائبهم ، فوعدوه بذلك ، وقصدوا بغداد . فوصلوها سنة ٦٥٦ هـ ، وهم مائتا ألف يتقدمهم هولاكو ، فخرج إليهم من بقي من عسكر الخليفة ، فهزم العسكر ، وحاصر التتار بغداد ، فأشار العلقمي على المستعصم بمصانعتهم ، وقال له : اخرج إليهم أنا في تقرير الصلح ، وخرج العلقمي وتوثق بنفسه منهم ، وعاد الى الخليفة ليقول : إن هولاكو قد رغب في أن يزوج ابنته بابنك الأمير أبي بكر ، ويبقيك في منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته ، ولا يريد إلا أن تكون له الطاعة ، كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية ، وينصرف عنك بجيوشه ، فليجب مولانا إلى هذا ، فإن فيه حقن دماء المسلمين ، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ماتريد ، والرأيُ أن تخرج إليه ، فخرج إليه في جمع من الأعيان ، فأنزل في خيمة .

ثم دخل الوزير بغداد ، فاستدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقد ، فخرجوا من بغداد ، فضربت أعناقهم ، وصار كذلك : تخرج طائفة بعد طائفة ، فتضرب أعناقهم ، حتى قتل جميع مَنْ كان فيها من العلماء والأمراء والحجّاب والكبار .

ثم مدّ هولاكو الجسر وعبروا الى بغداد ، وبذل السيف ، واستمر القتال نحو

أربعين يوماً ، فبلغ القتلى أكثر من مليون نسمة بحسب رواية ابن كثير والسيوطي، ولم يسلم إلا من اختفى في بئر أو قناة ، وقتل الخليفة رفساً وركلاً بأقدام التتار ، وحقَّ القول مع الشاعر :

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم ببقاء مولانا الوزير خراب

انقضت الخلافة العباسية ، ومات من المسلمين الكثير الكثير بسبب بطانة السوء ، فكما قال حكيم : « لا ظفر مع بغي ، ولا صحة مع نهم ، ولا ثناء مع كبر ، ولا صداقة مع خب ، ولا شرف مع سوء أدب ، ولا سلامة مع ريبة ، ولا راحة مع حسد ، ولا رياسة مع غرور وعجب ، ولا صواب مع ترك المشورة ، **ولاثبات ملك مع تهاون وجهالة أعوان »** .

ولم يتم لبطانة السوء ما أرادت ، وذاق العلقمي من التتار الذل والهوان ، وذهبت أحلامه وآماله أدراج الرياح ، وأقام هولاكو على العراق نوّابه ، وكان ابن العلقمي قد حَسَّنَ له أن يُقيم خليفة علوياً ، فلم يوافق ، بل أذله وأهانه ، فمات العلقمي كمداً وغماً .

ومع أن هذا العذاب العظيم ، عقاب عادل ، وجزاء مرتقب عاجل للخيانة والتآمر ، غير أنه هيهات له أن يعادل نتائج ما قدمت خيانة بطانة السوء ، متمثّلة بزعيمها ورأسها المدبِّر الوزير العلقمي ، ألا إنه من أكبر العقوبات والحسرات التي يلقاها الخونة في حياتهم : ضياع الآمال ، وانهيار الأحلام ، مع الذل والهوان ، والاحتقار ممن تعاملوا معهم ، فموت حسرة وكمداً .

الغنيمة سبب الهزيمة

✶ « رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لاحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم »(١) .

فتح المسلمون الأندلس بقيادة طارق بن زياد ، فكان فتح انقاذ لشعب أذلته الطبقية ، ونخرت جسمه مظالم الاستعباد وكثرة الضرائب وذلك ــ وبشهادة ول ديورانت ــ « لم تشهد بلاد الاندلس في تاريخها كله حكماً أكثر حزماً وعدالة وحرية مما شهدته في أيام فاتحيها العرب(٢) » .

وتابع المسلمون الفتح في أرض فرنسا وراء جبال البرنيه ، أيام عمر بن عبد العزيز ، عندما أقام السمح بن مالك الخولاني والياً على الأندلس سنة ١٠٠ هـ / ٧٤٠ م ، وكان رجلاً وثيق الإيمان ، جم النشاط ، فتوغل في فرنسا « بلاد الغال أو غاليا » ، فوصل طولوشة Tolosa ، حيث التقى عندها بدوق اكويتانيا « أودو » ، واشتد القتال بينهما ، واستشهد السمح في هذه الموقعة في يوم عرفة من سنة ١٠٢ هـ ، ولم تستطع فلول الجيش الاسلامي العودة إلا بفضل الشجاعة التي أبداها عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، الذي ولي الأندلس لفترة وجيزة ، فقد استبدل به عنبسة بن سحيم الكلبي ، الذي تابع الفتح في فرنسا ووصل الى

---

(١) القول لرسل المقوقس بعد عودتهم من زيارة للجيش الاسلامي بقيادة عمرو بن العاص ، قبيل فتح مصر .

(٢) القول لول ديورانت في كتابه « قصة الحضارة » .

قرقشونة ، فحاصرها ونزل أهلها على شروطه ، وتعهدوا برد أسرى المسلمين الذين كانوا في حصن قرقشونة ، وتابع عنبسة سيره حتى أدرك مجرى حوض الرون ، فاستولى على أوتون ، ووصل الى سانس Sens علىَ بعد ثلاثين كيلو متراً جنوبي باريس • ولو قدر الله سبحانه أن تكون أحوال أهل الأندلس على غير ما كانت عليه من خلافات عصبية ، ومنازعات بين العرب والبربر ، لفُتحت أوربا كلها •

توفي عنبسة متأثراً بجراح بالغة أصابته في شعبان ١٠٧ هـ أثناء فتوحاته في فرنسا ، فخلفه عذرة بن عبد الله الفهري ، الذي تابع الفتح والغزو في فرنسا •

ولما وصل عبد الرحمن الغافقي الى ولاية الأندلس للمرة الثانية ، كان بحق أقدر والٍ وقائد عسكري عرفته الأندلس •

عبر عبد الرحمن الغافقي جبال البرنيه في أوائل سنة ١١٤ هـ ، مع حوالي سبعين ألفاً من المسلمين بعد أن احتفل في بنبلونة باعداد حملته ، ففتح عبد الرحمن مدينة آرل ثم بوردو « بُرْدال » ، حيث سجل عبد الرحمن نصراً رائعاً على الدوق أودو •

أسرع أودو إلى قارله « شارل مارتل » يستنجده ، متناسياً خصومته معه ، فتوحدت القوى النصرانية في فرنسا وخارجها ، للوقوف في وجه عبد الرحمن الغافقي ، فكانت معركة بواتييه « بلاط الشهداء » وانهزم المسلمون ولم يكن الايمان ينقصهم ، ولم تكن الخبرة تعوز القيادة ، ولكن أسباباً أخرى كانت تفل من عزيمة الجيش ، فسببت هزيمته •

قال المؤرخون إن السبب في الهزيمة تلك المسافات الشاسعة جداً عن مركز الخلافة في دمشق ، فلا امدادات من الجند أو العتاد من مركز الخلافة • وفي رأينا هذا سبب لا قيمة له ، بدليل انتصار المسلمين في بدء المعركة على اعدائهم الذين لمسوا نقطة ضعف المسلمين بعدها مباشرة •

كما عزا آخرون سبب الهزيمة الى ما كان بين العرب والبربر من صراع

آنذاك ، وهذا عامل يحسب حسابه ، ينبغي ألا يهمل . أما السبب المباشر للهزيمة فهو الغنــائم .

الغنائم التي جمعها المسلمون أثناء زحفهم من المدن التي مروا بها قبل المعركة الفاصلة ، فالمراجع متفقة على أن الجيش الاسلامي كان يجر قوافل محملة بالغنائم والأسلاب من كل صنف ، ولعل تعلق الجند بهذه الغنائم كان كبيراً ، لأنهم حملوها معهم حتى نهر اللوار ، ولو أحسنوا لبعثوا بها جنوباً الى الأندلس ، حتى يطمئنوا عليها ، وتخلو أيديهم للعمل الجاد في المعركة ، إنهم حرصوا عليها ، فكان هــذا الحرص العامل الرئيسي والأساسي لهزيمتهم ، لأن عدوهم استشعر هذا الحرص منهم ، فعرف كيف يستغله لصالحه[1] .

كانت بواتييه « بلاط الشهداء » في أواسط تشرين الأول ٧٣٢ م ، أواخر شعبان ١١٤ هـ ، وتثبت المراجع تفوق المسلمين على أعدائهم في بدء المعركة ، ثم حدث أن اندفعت فرقة من الفرنجــة الى خلف صفوف المسلمين ، حيث أودع المسلمون غنائمهم ، فخشي الكثير منهم أن يستولي الفرنجة على غنائمهم ، فالتفت بعضهم وعاد الى الخلف ليبعد الأعداء عنها ، وهنا اضطربت صفوف المسلمين ، واتسعت الثغرة التي نفد منها الفرنجة ، ودار القتال بعنف وقوة ، فزلزل نظــام المسلمين ، وحاول عبد الرحمن جهده أن يثبت جنده ، ويعيد النظام ، أو يصرف الجند عن الهلع على الغنائم فلم يوفق وأصابه سهم أودى بحياته . وكان ذلك نذير الشؤم ، إذ انهال الفرنجة على المسلمين من كل جانب ، وصبر المسلمون ، حتى أقبل الليل فانتهزوا فرصة حلول الظلام ، وتسللوا متراجعين الى الجنوب على عجل ، وكان ذلك في ٢٠ تشرين الأول ٧٣٢ م أوائل شهر رمضان ١١٤ هـ .

وفي الصباح .. وجد الفرنجة مضارب المسلمين خاوية ولكنهــا تفيض بالغنائم ، فظنوا أنهــا خدعة ، وظنوا أن المسلمين قــد نصبوا شركاً لهم ، فلم يتابعوهم جنوبا .

---

(١) فجر الاندلس .

إن بلاط الشهداء موقف حاسم في تاريخ العالم كله ، فلو انتصر المسلمون فيها ، لسادوا فرنسا وغرب أوربا ، ثم أوربا كلها ، ولكان القرآن الكريم يدرس اليوم في جامعة اكسفورد كما قال ادوارد جيبون •

لقد ترتب على نتائج بلاط الشهداء تغيير مجرى التاريخ الى حد كبير ، ولم تحل هذه الصدمة دون اعادة الكرة على فرنسا ، إذ إن الهزيمة وحدها لم تكن لتوقف المسلمين عند هذا الحد ، بل كانت لهم بعد كرات أعقبها النصر والفتح ، غير أن أهمية بلاط الشهداء ترجع الى أن العرب ارتدوا عن فرنسا ولم يحاولوا اخضاعها اخضاعاً تاماً •• ولو تحقق اخضاعها كاملة لزالت عصورها الوسطى المظلمة مبكرة ، ولحققت من الحضارة والتقدم ما حققته الأندلس خلال عيشها في رحاب الاسلام • فلا غرابة إذن أن العديد من الكتاب الغربيين الذين رأوا روعة الإسلام وحضارته أينما حل ، اعتبروا نتيجة بلاط الشهداء نكبة كبيرة أصابت أوربا ، وضربة عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان(١) •

وستبقى ذكرى بلاط الشهداء لكل جيل لتشهد أن القتال في الإسلام لله وحده ، خالص في سبيله : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » •

فالجهاد وحب الدنيا بكنوزها وغنائمها لا يلتقيان ، كأني بالمقاتلين في بلاط الشهداء لم يتعظوا بما جرى في أحد • فكان التفاتهم الى الغنائم سبباً في هزيمتهم وانتصار الفرنجة ، وفي ذلك مخالفة للقانون الإلهي في احراز النصر ، لما فيه من حب الدنيا وكراهية الموت ، وهذا ما كان ينبغي أن يضعه المجاهدون نصب أعينهم ، ولكنهم انحرفوا عن القانون والسبب ، فكانت الهزيمة • كيف لا والجهاد في الإسلام خالص لله وحده ، من أجل نشر وتبليغ الناس الرسالة الاسلامية ، لا من أجل دنيا يصيبونها ؟ فلا غرابة أن تكون النتيجة هزيمة ساحقة أخرت بنتائجها الحضارة عن أوربة ستة قرون أو أكثر •

---

(١) التاريخ الاندلسي ، ص : ٢٠٢ •

تمزق الشمل وتفرق الكلمة

★ « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ، تلقون اليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل »٠

(الممتحنة : ١)

فتح المسلمون الأندلس سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م بتعاون طارق بن زياد وموسى ابن نصير ، وبدأ عهد الولاة من عام ٩٥ هـ حتى ١٣٨ هـ أو ٧١٤ م حتى ٧٥٥ م ، وتميز عهد الولاة بالاستقرار ، وتنظيم البلاد ، وانتشار الإسلام بين الاسبان ، كما بدأ في هذا العهد جهاد المسلمين في غاليا « فرنسا » خلف جبال البرت[1] ٠

وبعد سقوط الدولة الأموية في الشرق ، تمكن صقر قريش « عبد الرحمن الداخل » أن يصل الأندلس ويؤسس إمارة أموية ٠ وبذلك بدأ عهد الإمارة عام ١٣٨ هـ واستمر حتى عام ٣١٦ هـ ، أو ٧٥٥ م حتى ٩٢٩ م ، ليبدأ عهد الخلافة أيام عبد الرحمن الناصر ، والذي انتهى عام ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م ٠ ليبدأ عهد الطوائف ٠

(١) راجع للتوسع في هذا البحث الكتب التالية : فجر الاندلس للدكتور حسين مؤنس ، التاريخ الاندلسي للدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، عبر وعبرات من دمشق الاندلس للاستاذ جواد المرابط ، مجلة الهلال العدد التاسع سنة ١٩٧٥ مقال السيد احمد توفيق المدني : « كيف انهارت الاندلس » ٠ نفح الطيب للمقري جـ ١و٢ ، وكتابنا فتح الاندلس « معركة وادي لكة » ٠

عهد الطوائف .. عهد التفكك ، عهد من السنوات الصعبة من الفرقة والتنافس والتشتت والضياع ، بدأ عندما أعلن أبو الحزم جَهْوَر بن محمد ابن جَهْوَر إلغاء الخلافة التي كان مركزها قرطبة .

يقول المقّري في نفح الطيب : « وانقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف ، وانتزى[1] الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات ، واقتسموا خُطّتها ، وتغلب بَعْضٌ على بعض ، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم ، وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجِزَى[2] للطاغية أن يظاهر عليهم ، أو يبتزهم ملكهم[3] » .

وعدّد صاحب معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي سبعاً وعشرين طائفة (أو إمارة أو دويلة) تتنافس فيما بينها[4] ، منها :

بنو جهور في قرطبة ، وبنو حَمّود بمالَقَة ، وبنو برزال بقرمونة ، وبنو ذي النون بطليطلة ، وبنو عباد باشبيلية ، وبنو زيري بغرناطة ، وبنو الأفطس ببطليوس ، وبنو صمادح بالمرية ، وبنو تجيب وبنو هود بسرقسطة ولاردة ، والعامريون ببلنسية ...

وقد سببت هذه الدويلات حالة من الارتباك وضياع الجهود ، وتربّص بعضها ببعض ، لعل أمير أحدها يملك ما بيد غيره ، ولعل ملك أحدها يسيطر على أرض جديدة فيتوسع على حساب أخيه .

بينما كانت اسبانيا النصرانية تتربّص بهم جميعاً ، حتى بمن بينها وبينه تحالف أو صداقة ، لقد جمعت اسبانيا قواها ، عندما توحدت قشتالة وأراغون بزعامة ألفونس ملك قشتالة وحليفه ساشو الثاني ملك أراغون . ولما قام ألفونس

(١) انتزى : نزا بمعنى وثب ، وهنا المعنى استقل وثار . « مختار الصحاح ، ص : ٥٦٣ » .
(٢) الجزى : جمع جزية .
(٣) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص ٤١٣ .
(٤) راجع معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي للمستشرق زامباور ، ص : ٨٦.

حاكم اسبانيا النصرانية بهجومه على طليطلة ، واحتلها سنة ٤٧٨ هـ ، وقفت بقية الطوائف تنظر ولم تحرك ساكناً لنجدة طليطلة ، ولكأن الأمر لا يعنيهم ، بل إن بعضهم طلب عون ألفونس وأعلن له خضوعه ، كالمعتمد بن عباد الذي حالف ألفونس ، الذي تسمى بالامبراطور ، أو بالامبراطور ذي الملّتين « الإسلامية والنصرانية » .

وقامت في الأندلس بعد سقوط طليطلة دعوة لتوحيد الجهود ، وجمع الشمل ، تولاها القاضي أبو الوليد الباجي ، لكنها باءت بالفشل .

لقد رأى ملوك الطوائف طليطلة تتهاوى أمام أعينهم ، وتسقط من حولها الحصون والمدن أيضاً ، وهز ذلك العالم الاسلامي كله ، وساده حال من الحزن فيها مرارة وأسى وملوك الطوائف ينظرون الى الأمر وكأنه لا يهمهم ، ولا يستهدفهم ، فحمّل المسلمون في الأندلس وفي العالم الاسلامي ملوك الطوائف المسؤولية ، لقد رأوا نتيجة تشتتهم وانقسامهم وتبعثر قواهم بأم أعينهم ولم يتعظوا . وهذا هو ألفونس يطالب حليفه المعتمد بن عباد ببعض الحصون والقلاع ، وبالتعجل بدفع الضريبة السنوية ، وكان حامل المطالب هذه يهودياً ، فأغلظ في القول للمعتمد ، فأمر بقتله ، فكان ذلك انذاراً بالحرب ضد ألفونس الذي بدأ يحشد قواته[1] ، فمن لموقف الضياع والتشتت هذا ؟

كان الرجل المناسب لهذا الموقف الحرج يوسف بن تاشفين[2] أمير المرابطين، الأمير المسلم بما في هذه الكلمة من معاني الاقدام والجهاد لله وحده ، وكأن الله عز وجل أراد أن ينقذ هذه الأمة في شرقها وفي غربها من الهجمات الصليبية على يد يوسفين ، يوسف صلاح الدين الأيوبي في الشرق ، ويوسف بن تاشفين في الغرب .

قدمت من الأندلس الى مراكش عاصمة المرابطين الوفود الشعبية والرسمية

---

(١) المغرب عبر التاريخ ، للاستاذ ابراهيم حركات ، ج : ١ ، ص : ١٧٤ .

(٢) يوسف بن تاشفين ، « أمير المرابطين » : من سنة ٤٥٣ وحتى سنة ٥٠٠ هـ .

في آن واحد ، تحث وتستنهض ابن تاشفين على الجهاد • فهب وقومه وهم المرابطون في سبيل الله ، وقد آن أوان الجهاد ، وآن أوان نصرة المسلمين في الأندلس • فعبر يوسف بن تاشفين وجنده مضيق جبل طارق ، والتقى بجيوش النصارى ، حيث جيوش قشتالة بقيادة ملكها وفارسها الكمبيادور ، وملكي نافار وأراغون ، ولسنا هنا في صدد شرح الخطة العسكرية الرائعة التي أمنت عنصر المفاجأة ، والتي دلت على فكر ابن تاشفين العسكري الممتاز[1] • ولكن يسكننا القول ان ابن تاشفين انتصر في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ ، وبلغ عدد قتلى النصارى فيها أكثر من عشرين ألفاً •

وتذكر كتب التاريخ مراسلة بين ابن تاشفين وألفونس قبل المعركة ، عرض بها ابن تاشفين الإسلام أو الجزية أو الحرب ، فأجابه ألفونس مهدداً ساخراً . وكان رد ابن تاشفين : « الجواب ماترى لا ما تسمع » ، فرأى ألفونس هزيمته وفرار جنده ، وسمع « الله أكبر » هتافاً سماوياً ، من قلوب مؤمنة ، ومن أفواه مجاهدين جاؤوا لتحقيق كلمة الله في الأرض ، فكان الله معهم ، ونصرهم في معركة الزلاقة التي مَدَّت سلطان المسلمين في الأندلس أربعة قرون أخرى •

عاد ابن تاشفين الى المغرب العربي ، وعاد ملوك الطوائف الى خلافاتهم ، وعادت سرايا النصارى تضايق من جديد سكان مرسيه وبلنسية وغيرها من المدن المسلمة ، فهرع المعتمد بن عباد يشكو الى ابن تاشفين ظلمهم ، فعبر ابن تاشفين الى الأندلس عبوره الثاني ، وصد النصارى ، وعاد الى المغرب العربي •

كره الفقهاء عبث ملوك الطوائف وانشغالهم عن خطر العدو بالنزاع فيما بينهم ، فطلبوا من ابن تاشفين العبور الى الأندلس ، وخاف ملوك الطوائف على ملكهم ، حتى أن عبد الله بن بلكين حالف ألفونس وطلب مساعدته ضد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين ، فما كان رد يوسف إلا أن ضم الأندلس الى حكمه

---

(١) راجع كتابنا : « الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين » الجزء الثامن من سلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الاسلام » •

المباشر سنة ٤٨٤ هـ ، بعد أن اتضحت له خيانة بعض ملوك الطوائف صريحة ، وتأكد له انشغال بعضهم الآخر في منازعات جانبية كانت لمصلحة النصارى الاسبان ، فأنقذ ابن تاشفين بذلك ما يمكن انقاذه .

وانقضى أمر ملوك الطوائف باستثناء بني هود الذين احتفظوا بالثغر الأعلى بطلب منهم ، وبموافقة ابن تاشفين .

ثم قامت في المغرب العربي دولة الموحدين ، وترقب النصارى الموقف ، فوجدوا مناسبة عندما مرض أمير الموحدين يعقوب المنصور[1] ، فطالبوه بعبيد ومراكب وسفن ، وكأنها جزية مفروضة ، فسار يعقوب المنصور إليهم . وكانت المعركة بينهم قرب قلعة « الأرك » بين قرطبة وقلعة رباح في شعبان ٥٩١ هـ ، وكان النصر رائعاً للمسلمين على النصارى ، فلاذوا بالفرار ، وتحصّن بعضهم في قلعة الأرك ، فاقتحمه المسلمون عليهم .

والحق .. إن معركة الأرك قريبة الشبه في أهميتها ونتائجها بمعركة الزلاقة، ولكنها كانت آخر معركة عظمى تم فيها للمسلمين انتصار ساحق بالأندلس ، كانت له نتائج إيجابية رائعة .

لم ينسَ ملك الاسبان عار الهزيمة الذي لحقه منذ معركة الأرك ، فصار يهاجم الأراضي الاسلامية فأعدّ أمير الموحدين محمد الناصر عام ٦٠٧ هـ جيشاً لمحاربة النصارى الذين استنجدوا بكل دول أوربة ، فجاءتهم النجدات الهائلة من مختلف أصقاع القارة الأوربية .

استرجع النصارى حصن الأرك ، وزاد الأمر سوءاً أن الوزير ابن جامع ــ وزير أمير الموحدين ــ قد أوقع الخلاف بين جيش الموحدين وبين القوات الأندلسية ، مما جعل الأندلسيين يحقدون على الموحدين .

وكان اللقاء الحاسم على مقربة من حصن العقاب ، وبدأ القتال ، فاعتزل

(١) امارته من سنة : ٥٨٠ ــ ٥٩٥ هـ .

الأندلسيون الحرب وانسحبوا في هذه الساعات الحرجة العصيبة ، فتبعتهم النصارى يقتلون ويأسرون ويجمعون الغنائم ، وصمد محمد النـاصر ، ولكن هيهات تحقيق النصر بعد أن تصدع الصف الداخلي ، فحاقت الهزيمة بالمسلمين في ١٥ صفر ٦٠٩ هـ ، وفقدوا ثلث قواهم .

ويمكن ارجاع أسباب الهزيمة المرة التي كانت من أسباب ضياع الأندلس[1]، بأسباب أهمها :

١ ــ شخصية أمير الموحدين محمد الناصر الضعيفة أمام وزيره ابن جامع الذي أوقع الخلاف بينه وبين الأندلسيين ، وهم قوة لا يستهان بها في المعركة .

٢ ــ انسحاب الجيش الأندلسي بسبب موقف ابن جامع ، فجرّوا بفرارهم انسحاب باقي الجيش .

٣ ــ تعرّض الجيش الاسلامي طيلة ثمانية أشهر لأقسى عوامل الطبيعـة ونقص التموين .

٤ ــ تماسك جيش النصارى الذين اختلفوا فيما بينهم قبل المعركة حتى حارب بعضهم بعضاً ، وقد توسط البابا سلستان الثـاني ، فوفق بين مختلف الأمراء الإسبان ، وسرعان مانسوا خصوماتهم ، فتماسكوا ، وهم يعتقـدون جازمين بأنهم جاؤوا من كل أصقاع أوربة لنصرة دينهم على دين آخر .

٥ ــ عدم ثبات العرب والبربر بعد انسحاب جند الأندلس ، مما يدل على ضعف في القيادة ، وسوء في التنسيق .

وتابعت الجيوش النصرانيـة تتبّع المنهزمين حتى ردّهم أبو زكريا بن أبي حفص قرب اشبيلية .

لقد كان لهزيمة العقاب أثرها المعنوي على الموحدين في المغرب العربي . فسببت سقوط دولتهم ٦٦٨ هـ .

---

(١) المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٩٤ .

بعد ضعف السلطة الموحدية في الأندلس ، ضاعت عدة قواعد اسلامية بيد الإسبان ، وظهر محمد بن يوسف بن هود في سرقسطة ، وبدأ نشاطاً ضد الاسبان، غير أنه كان ينقصه التأني والتريث وتحين الفرص ، لذلك خسر معارك عديدة أمام الاسبان .

وفي غرناطة أسس محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر مملكة ، عمّرت رغم الصعوبات الداخلية والخارجية مايزيد على قرنين ونصف ، وسبب هذا البقاء وجودها في الزاوية الجنوبية من الأندلس ، حيث لم يتأخر الاخوة في العدوة الافريقية عن عون بني الأحمر ، ماداموا يقفون أمام عدو صليبي ، ومادامو ا يرغبون في نصرة المجاهدين ، وفي الجهاد في سبيل الله خالصاً لا مغنم دنيوياً فيه .

وتنبّه الاسبانيون لأهمية الامدادات من افريقية ، فاحتلوا جبل طارق سنة ٧٦٧ هـ / ١٤٦٢ م ، ليحولوا دون وصول الامدادات من المغرب العربي الى الأندلس ، وجاءت الظروف تعاكس مصلحة مسلمي الأندلس ، عندما سقطت الدولة المرينية سنة ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م ، لتحل محلها دولة فتية هي دولة بني وَطّاس ، التي لم تكن على مستوى كاف لدعم مسلمي غرناطة والجهاد في الأندلس .

وفي هذه الآونة أيضاً ، فتح المسلمون العثمانيون القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م ، بقيادة محمد الفاتح ، فكان لسقوط القسطنطينية بيد المسلمين وقعهُ الهائل على مسيحيي أوربا والعالم كله ، فساعد ذلك على ازدياد الهجوم الاسباني على الأندلس ، فاتحدت قشتالة وأرغون سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م ، بزعامة الملكين الكاثوليكيين فرديناند ملك أرغون ، وايزابيل ملكة قشتالة ، لتبدأ الحملة نحو غرناطة التي سقطت في ٢١ المحرم ٨٩٧ هـ / ٢٥ تشرين الثاني ١٤٩١ م .

وغابت شمس الإسلام عن الأندلس ، كيف لا ؟ والعدو عندما كان يتجه نحو الوحدة متناسياً خلافاته ، كانت إرادة المسلمين تتجه نحو التمزق

والاختلاف ، والتمسك بالمصالح الشخصية ، وجعلوا الأندلس إمارات وممالك متناحرة متخاذلة ، أثاروا حروباً شعواء بعضهم ضد بعضهم الآخر ، حتى رأيناهم وقد استعانوا بعدوهم على أبناء دينهم وجلدتهم !

فعندما كان فرديناند وزوجه ايزابيلا يعلنان عزمهما على محق آخر دولة إسلامية في الأندلس ، وبينما كان البابا يعلن في روما أن هذه الحرب ضد المسلمين إنما هي حرب مقدسة ، ويفرض على المسيحيين كافة ضريبة من أجل تحطيم المسلمين لا في الأندلس فحسب ، بل في شمال افريقيا أيضاً ، كان المسلمون قد ركنوا الى الراحة ، وأسندوا الأمر إلى غير أهله ، وكرهوا الجهاد ، فنرى السلطان أبا الحسن علي بن يوسف مسترسلاً في ملذاته : رقص سماح ، وموشحات أندلسية ، وراقصات فاتنات كاسيات عاريات .. وثار عليه أخوه محمد الملقب بالزغل « أي الفتى النبيل المقدام » ونصب نفسه ملكاً بمالقة ، فانقسمت غرناطة الى مملكتين ، والعدو ينظر بعين الرضا وقلبه مفعم بالسرور .

وتعقدت الأمور أكثر عندما بدأ التناحر على ولاية عهد السلطان أبي الحسن، فهو قد اتخذ لنفسه حظية اسبانية اسمها ثريا ، ورزق منها بأولاد ، الى جانب ولدين من زوجة كريمة هي ابنة عمه عائشة الحرة ، وكان كبير أولاده من الحظية الإسبانية هو يحيى ، وكان هم والدته اسناد ولاية العهد لابنها ، فانقسمت مدينة غرناطة وهي مهددة بالخطر الشديد الى قسمين متعادلين ، كل قسم منها يؤيد أحد الوليين .

وثارت غرناطة وخلعت السلطان أبا الحسن لتبايع ابنه أبا عبد الله محمد المعروف بأبي عبد الله الصغير ملكاً ، ويفر الملك الأب من وجه ابنه ، ويعلن أن ابنه شق عصا الطاعة وأنه هو الملك الشرعي ، ولم يلبث أن عاد على رأس جيش ونصّب نفسه ملكاً على قسم من مدينة غرناطة ، وبقي القسم الآخر موالياً لابنه أبي عبد الله الصغير .

فأمام وحدة الاسبان ، بل وحدة الصليبية الأوربية كلها، وأمام خطر السقوط والتلاشي يقف ثلاثة ملوك متناحرين : الملك أبو الحسن ، والملك الزغل شقيقه ، وأبو عبد الله الصغير ابنه .

ووصل الحال بالانقسام والحماقة المنكرة ، أن أبا عبد الله الزغل أصاب النصارى في احدى معاركه معهم بكارثة مؤلمة ، واثخن فيهم ، فاذا بالملك المشؤوم أبي عبد الله الصغير يبعث برسالة الى ملك الاسبان يعتذر فيها عما فعله عمه .

في هذه الظروف تألبت المسيحية في أوربة كلها على المسلمين في الأندلس ، فسار فرديناند وايزابيلا مع اثني عشر ألف فارس ، وأربعين ألفاً من المشاة ، وستة آلاف من ممهدي الطرق أمام الجيش .

وكان على رأس المتطوعين الفرنسيين الذين جاؤوا لنصرة الاسبان القائد « كاسطون اليوني » ، وعلى رأس المتطوعين الانجليز « اللورد سكالس » وكان المتطوعون الألمان يشتغلون بالمدافع ويحسنون توجيه ضرباتها[1] .

وبلغت الخسة والنذالة بأبي عبد الله الصغير أنه لما سقطت مدينة مالقة ، وتحول مسجدها الأعظم الى كنيسة ، أرسل يهنىء فرديناند بذلك ، لا لسبب إلا لأنها كانت معقلا لعمه ومنافسه أبي عبد الله الزغل !! ولأنه يعتبر نفسه حليفاً لفرديناند ضد الزغل !!

ولكن فرديناند وحلفاءه سرعان ما قلبوا لأبي عبد الله الصغير ظهر المِجَنّ وقاتلوه وطلبوا منه تسليم مفاتيح الحمراء مقر ملكه ، فحاول المقاومة بعد فوات الأوان ، فاضطر الى عقد صلح مؤلف من ٦٧ مادة[2] واحتل العدو الحمراء وتسلط على غرناطة كلها ، وأوعز الى أبي عبد الله الصغير بالرحيل ، فرحل الى قرية « أندرس » ثم طرده فرديناند ، فركب البحر الى العدوة الافريقية واستقر

(١) راجع الهلال العدد التاسع سنة ١٩٧٥ ، ص ٢٠ وما بعدها ، مقال الاستاذ احمد توفيق المدني : (كيف انهارت الاندلس ؟) .

(٢) كما يذكر المقري في نفح الطيب ، وذكر الاستاذ عنان في نهاية الاندلس أنها ست وخمسون مادة.

في مدينة فاس حيث قضى أيامه الأخيرة كمداً وغماً ، يتلظى بنار الخيانة والفرقة والانقسام ، وكأنه ، وكأن ملوك بني الأحمر ، لم يسمعوا قوله تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »[1] .

هكذا انصرم حبل الاسلام في الأندلس بعد أن بقي فيها سبعمائة وثمان وسبعين سنة ميلادية . منذ انهزم لذريق أمام جيش طارق بن زياد في معركة وادي لكّة ، الى تسليم أبي عبد الله الصغير غرناطة عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩١ م .

لقد أسدل الستار على الحكم الإسلامي في الأندلس لتبدأ محنة شعب مسلم يواجه محاكم التفتيش التي أجبرت بروح صليبية حاقدة المسلمين في اسبانيا على اعتناق النصرانية ، ومن حاول الهجرة الى العدوة الافريقية . لاحقته محاكم التفتيش وأبادت ما يمكن إبادته . يقول لوبون في [حضارة العرب] : « الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠٫٠٠٠ مهاجر مسلم ، حينما كانت متجهة الى افريقية[2] » .

وستبقى ذكرى الأندلس عبرة لأمتنا ، نرى من خلال الذكرى عواقب التنازع والانقسام ، عواقب الانحلال الخلقي والتفرقة ، عواقب الموشحات ورقص السماح .

المسلمون في نصف قرن فتحوا نصف الدنيا ، ولكن بوحدة الكلمة، والتحام الصف ، ووضوح الهدف ، مع متانة العقيدة . وفي الانقسام ، بل وبالاستعانة بالعدو ، قلب الله عزهم ذلا ، وغناهم فقراً ، وقوتهم ضعفاً ، وأمنهم تشرداً ونزوحاً، يقول ستانلي لين بول في « قصة العرب في اسبانيا » : « زحف الدون جوان على

---

(١) سورة الانفال ، الاية الكريمة : ٤٦ .

(٢) حضارة العرب ، ص : ٢٧٠/٢٧١ . وفي كتاب « الاسلام والعرب » لروم لاندو (دار العلم للملايين ، ط : ١ ، ١٩٦٢) : « برنامج التنصير الاجباري شعاره : اما المعمودية ، واما الاخراج من البلاد. ويقدر المؤرخون عدد المسلمين الذين أبعدوا أو قتلوا ما بين سقوط غرناطة ومطلع القرن السابع عشر بثلاثة ملايين ونصف » . ص : ١٨٠ .

العرب وهو يحمل شعار [لا بقاء ولا هوادة] فذبحت النساء والأطفال بأمره وتحت سمعه وبصره » •

علّة السقوط عرفها القريب والبعيد ، ونصحنا الصديق والعدو ، قال المستشرق (كوندي) : « العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها ، وأصبحوا على قلب متقلب ، يميل الى الخفة ، والمرح ، والاسترسال بالشهوات » • فشعب هذه صفاته لن يصمد رجاله في حرب •

* سئلت مرة عن سبب ضياع الأندلس ، فقلت :

دخلنا الأندلس بشجاعة وفداء طريف بن مالك ، وعزيمة طارق بن زياد ، وإيمان موسى بن نصير ، وطموح عبد الرحمن الغافقي ، وبطولة السمح بن مالك الخولاني ، وتجدد الاسلام فيها بنجدة ومتانة عقيدة يوسف بن تاشفين •

بقينا في الأندلس ما بقينا مع الله ، وضاعت الأندلس لما أضعنا طريق الله •

بقينا في الأندلس بهمة عبد الرحمن الداخل ، الذي قال لما نزل من البحر الى بر الأندلس ، وقد قدم إليه خمر ليشرب ، فأبى وقال : إني محتاج لما يزيد في عقلي لا لما ينقصه ، فعرف الناس من ذلك قدره ، ثم أهديت إليه جارية جميلة ، فنظر إليها وقال : إن هذه لمن القلب والعين بمكان ، وإنْ أنا لهوت عنها بمهمتي فيما أطلبه ظلمتها ، وإنْ لهوتُ بها عما أطلبه ظلمت مهمتي ، فلا حاجة لي بها الآن ، فقالوا : إنّ الأمير ذو همة •

مرت الأيام ، ومال المسلمون في الأندلس الى حياة الرخاء والنعيم ، متناسين من يسكر بهم ، ومن يجمع صفوفه لسحقهم كان عدوّهم يستعد عسكرياً ، ويوحد كلمته ، وهم في موشحاتهم وسماحهم وخمرتهم وترفهم مخمورون •

دخلنا الأندلس عندما كان نشيد طارق في العبور الله أكبر ، ذلك النشيد الذي لامس سمع الزمان فترنم لعذوبته ، وصدقه ، وجلاله •• فكان الله ورسوله

مع طارق ، لقـد أخذت طارقاً سِنَة" من نوم وهو يجتـاز المضيق الى أرض الأندلس ، فرأى النبي ﷺ ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلّدوا السيوف ، وتنكبوا القسي ، فيقول له رسول الله : يا طارق تقدم لشأنك ، ونظر إليه والى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدّامه[1] •

وخرجنا منها لما صار نشيدنا :

دوزن العود وهات القـدحا راقت الخمرة والورد صحا !

ومما يؤسف له ، ويدمي القلب حزناً ، أن لا نحيي من أمجاد الأندلس إلا قشورها ، وما كان من أسباب ضياعها ، أمـا حضارتها ، أمـا علومها وأسباب ازدهارها ، فقد جعلناها وراء ظهورنا ، واكتفينا بما أحييناه مـن الموشحات ، ورقص السماح •• لذلك تكرّرت العلة والهزيمة والضياع •

تَشَتّتت الأندلس الى دول تكرر ازاء فلسطين ، فضاعت • أما دخلنـا حرب ١٩٤٨ سبع دول ؟ أما انهزمنا لأننا سبع دول ؟ أما لو كنا دولة واحدة لمـا كانت النتائج كما حصل • وما فضيحة الأسلحة الفاسدة في نكبة فلسطين ، إلا نوع من التعامل مع العدو ضد الأخ والمواطن العربي ، فيا عجباً •• لقـد تكرّرت الصـورة •

وكانت نكسة ١٩٦٧ ، استمراراً لتلك الصورة الأندلسية في تهوين قدرة العدو ، والاستخفاف بقدرته حيناً ، وفي التهويل والعويل والضجيج حيناً آخر •

وفي عام ١٩٧٣ ، كان الصمود العربي لسببين اثنين :

ـ روح الايمان التي ظهرت أثناء القتال •

ـ وما نتج عنها من وحدة الصف والتكاتف اللذين سادا في حينه ، مادياً ومعنوياً •

لقد كانت خطة العبور في السويس تحمل اسم « بدر » ، والحـرب على

(١) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٢١٦ •

الجبهتين السورية والمصرية سميت : « حرب رمضان » أو «غزوة بدر التشرينية» •
وهذا مالاحظه الاعلام الأوربي والعالمي معاً •

لقد ظهرت روح الإيمان في كلمات القادة العرب ، التي خاطبوا بها أبناءهم المقاتلين ، حين توجهوا اليهم بمثل العبارات التالية التي نوردها حرفياً :

« فيا أحفاد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، يا أحفاد خالد وأبي عبيدة وعمرو وسعد وصلاح الدين ، إن ضمير أمتنا ينادينا، وأرواح شهدائنا تستحثنا أن تتمثل معاني اليرموك والقادسية وحطين وعين جالوت ••

وتشاء إرادة العلي القدير أن يكون جهادكم في هذا اليوم من أيام الشهر الفضيل ، شهر رمضان ، شهر الجهاد ، شهر غزوة بدر ، يوم الفتح ، شهر النصر ••

لقد انتصر أجدادنا بالإيمان ، بالتضحية ، بالتسابق على الشهادة دفاعاً عن دين الله ورسالة الحق ، وإنكم اليوم ببطولاتكم وشجاعتكم إنما تستلهمون هذه الروح ، وتحيونها وتحيون بها تقاليد أمتنا المجيدة •

فسيروا على بركة الله « إن ينصركم الله فلا غالب لكم »[1] •

نرجو الله عز وجل أن يجعل من عبر الأندلس منطلقاً لوحـدتنا ، ورصّ صفوفنا ، ولَمّ شعثنا ، فالتاريخ خير شاهد أننا منذ انطلقنا ، انطلقنا بالإسلام ، وبسنا نوره كتبنا أمجادنا ، وبه سدنا وحققنا انتصاراتنا •

وها نحن نرى أننا كلما ابتعدنا عن الاسلام ، ابتعدنا عن النصر والمجد ، وجاءت الهزائم لتحل مكان الانتصارات ، وكلما التصقنا به كان المجد والنصر معاً ، وكلما تفاعلنا معه أكثر ، كان العز والجاه والسؤدد أكثر ، ولقد قالها عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قبل : « ومهما نـُرِد العزة بغيره يذلنا الله » •

فهل من معتبر بأحداث الأندلس وضياعها ؟!؟

هل من متعظ من تكرار الصورة الأندلسية في فلسطين وغيرها ؟!؟

ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار •

(١) من خطاب السيد الرئيس في ٦ / تشرين الاول / ١٩٧٣ •

عدم مواكبة التقدم العلمي
« الجمود »

★ « بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ماأرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين »
(الزخرف : ٢٢ ــ ٢٥).

* شهد الشرق الأوسط في مطلع القرن السادس عشر للميلاد صراعاً أدى الى تغيير في حدوده الجغرافية ، وكان هذا الصراع بين ثلاث قوى حين التقت مناطق نفوذ العثمانيين والمماليك ، بمنطقة نفوذ الصفويين الفرس :

١ ــ صراع بين العثمانيين الذين قطنوا القسم الأوسط والغربي من آسيا الصغرى ــ تركيا حالياً ــ وتوسّعوا في شرق أوربا • وبين الصفويين الذين سكنوا ايران وكان مذهبهم شيعياً ، ولغتهم الرسمية الفارسية •

٢ ــ وبين العثمانيين والدولة المملوكية التي حكمت مصر وبلاد الشام •

* ينتسب الصفويون الى الشيخ صفي الدين اسحق الذي أقام في أربيل باذربيجان بأواخر القرن الثالث عشر ، ويعتبر الشاه اسماعيل الصفوي المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية ، فهو الذي قاد حملة عام ١٥٠٧م فاحتل منطقة البستان الواقعة على الفرات الأعلى بين مرعش وملاطية ، كما وصل الشاه اسماعيل الى

بغداد غرباً ، وديار بكر شمالاً • وجعل المذهب الشيعي المذهب الرسمي لدولته ؛ وأخذ ينشره خارج بلاده ، مما أقلق جيرانه السنيين العثمانيين • وأدى ذلك الى نزاع مسلح صفوي ـ عثماني في شهر آب ١٥١٤ ، وكانت معركة « شالديران » التي هُزِمَ فيها الشاه الصفوي، وانتصر السلطان سليم الأول العثماني• وأظهرت معركة شالديران ، تفوق « بندق الرصاص » الذي استخدمه العثمانيون، فتمكنوا من احتلال تبريز عاصمة الشاه الصفوي الذي انسحب جنوباً •

* اختل توازن القوى في الشرق الأوسط لصالح العثمانيين بعد انتصارهم في شالديران ، وبدأ الاحتكاك بينهم وبين المماليك ، بسبب اعتداء المماليك على قوافل المؤن العثمانية ، مما نبّه العثمانيين الى الخطر المملوكي •

في ١٣ أيار ١٥١٦م ، غادر قانصوه الغوري سلطان المماليك مصر متجهاً نحو سورية لاستعادة مرعش من العثمانيين ، والتي كان يعتبرها المماليك جزءاً من أراضيهم وممتلكاتهم ، فوصل دمشق في ١٩ حزيران ١٥١٦ ، ثم غادرها في ٢٥ تموز متجهاً شمالا ، فانضم اليه نائب حماه جانبردي الغزالي ، ونائب حلب خيري بك •

اعتقد قانصوه الغوري أن مجرد ظهوره على حدود العثمانيين سيخيفهم ؛ وكان الغوري في الوقت ذاته يتفاوض مع الشاه اسماعيل الصفوي المنهزم في شالديران ، ووقعت مراسلاته بيد العثمانيين ، فسارع السلطان سليم الأول، واتجه نحو الجيش المملوكي ، للقضاء عليه قبل أن يتم مثل هذا التحالف الصفوي ـ المملوكي •

وفي ٢٣ آب ١٥١٦ ، التقى بقانصوه الغوري ، وذلك في موقع يُعرف بتل الغار في مرج دابق شمال حلب • فتغلّب العثمانيون على المماليك ، وقتل قانصوه الغوري في المعركة ، وانهزم المماليك ، فدخل سليم الأول حلب منتصراً ؛ ثم سار الى دمشق التي غادرها في ١٥ كانون الأول ١٥١٦ ، متجهاً الى مصر

ليَهْزِم طومان باي الذي جمع بقية المماليك ، فكانت معركة الريدانية في ٢٣ كانون الثاني ١٥١٧ ، وكان الانتصار الثاني الساحق للعثمانيين على المماليك •

والآن •• لماذا انتصر العثمانيون في شالديران عام ١٥١٤ ، وانهزم الصفويون ؟

ولماذا انتصر العثمانيون في مرج دابق عام ١٥١٦ وفي الريدانية عام ١٥١٧ وانهزم المماليك ؟

والجواب : أسباب نصر العثمانيين في هذه المعارك الثلاث واحدة ، وأسباب انهزام الصفويين والمماليك واحدة • لقد انتصر العثمانيون بسبب تسلحهم الحديث وصناعتهم لمدافعهم وبنادقهم النارية مع حسن استخدامها ، وانهزم الصفويون والمماليك بسبب جمودهم ، واهمالهم الأسلحة النارية الحديثة ، واعتمادهم على الأسلحة التقليدية القديمة التي تجاوزها الزمن •

* في شالديران انهزم الصفويون بسبب سلاح المدفعية الذي كان يعوزهم . والذي كان الصفويون الفرس عاجزين بسبب فقدانه عن مضاهاة العثمانيين في الميدان • وهذا حث الصفويين على استقدام من يصنع لهم هذا السلاح الذي غير ميزان القوى في المنطقة لصالح العثمانيين •

وبالفعل ظهر في بلاط عباس الكبير الصفوي (١٥٨٨ ــ ١٦٢٩ م) مغامران انكليزيان وهما السير انطوني والسير روبرت شيرلي ، اللذان مكناه آخر الأمر وبمساعدة صانع مختص بصناعة المدافع كان يصحبهما ، من أن يسلح الجيش الصفوي بسلاح المدفعية ، هذا السلاح الذي كان يعوز الصفويين من قبل ، والذي كان الفرس عاجزين بسبب فقدانه عن الانتصار على العثمانيين في شالديران •

واستغل الصفويون الفرص فيما بعد ، وبعد هذا التسليح . فعندما انهمكت الامبراطورية العثمانية في حروبها مع الامبراطورية النمساوية المقدسة ، أعلن

عباس الكبير الصفوي الحرب على العثمانيين عام ١٦٠٢ م وتمكّن بجيشه الجديد من استرداد تبريز ، كما تمكن من أن يسترد شروان وأن يصل بغداد •

* أما المماليك ، فقد اعتمد جيشهم كلياً على الفروسية التقليدية من سيف ورمح ، ويورد بعض المؤرخين عبارة على لسان المماليك معناها :

ـ « إننا نحن المسلمين ورثنا عن ديننا الحنيف ، ونبينا محمد ﷺ تعاليم الفروسية وتقاليدها من سيف ورمح ، فلن نستخدم غيرها »[١] •

لذلك أهملوا الأسلحة النارية اهمالاً كبيراً ، ومالوا أيضاً إلى الراحة والترف ، حتى أن غالبية الميادين التي بنيت للتدريبات العسكرية الحربية تهدمت، ولم تبن ميادين جديدة . وحاول السلطان قانصوه الغوري أن يبعث تمارين الفروسية ، والروح العسكرية من جديد ، فبدأ عام ١٥٠٣ م ببناء ميدان كبير ، أقام فيه تمارين الفروسية ، كما كانت في أوجهها •

كما حاول المماليك ادخال الأسلحة النارية [كأحدث سلاح عرفه العالم في حينه] في دولتهم ، ولكن ذلك جاء متأخراً ، قبيل سقوطهم بسبع وعشرين سنة ، عام ١٤٨٩ م • وقد ادخلوا المدافع ، لكنها استخدمت للدفاع وليس للهجوم ، وذلك في الجبهة الجنوبية الشرقية على ساحل البحر الأحمر بمصر ، في صد هجمات البرتغاليين • كما استخدم سلاح المدفعية بشكل استحكامات دفاعية •

ومما يسترعي الانتباه أن هذه المدافع لم تستخدم في معركة مكشوفة . مثل مرج دابق على الرغم من أن الوسائل والزمن كانا متوفرين لنقلهما الى ساحة المعركة • ولعل عدم نقلها يعود الى كره المماليك لاستخدامها •

ويمكن القول : إن استخدام الأسلحة اليدوية النارية « وتسمى بندق الرصاص » ، والمدافع في الدولة المملوكية قد تم في الوقت الذي كانت فيه هذه

---

(١) كما تكررت صور من أحد في بلاط الشهداء ، تكررت هذه الصورة في الجمهوريات الاسلامية في روسيا في مطلع هذا القرن عندما كان الشيوعيون يتسلحون ، وقال بعض المسلمين : لا نقاتل الا بسلاح قاتل به رسول الله !؟!

الدولة سائرة نحو الانحطاط ، إن لم يكن السقوط ، على عكس الدولة العثمانية، التي استخدمت الأسلحة النارية بصورة متطورة منذ عام ١٤٢٥ م ، بل صنَّعت الدولة العثمانية حينئذ هذه الأسلحة لتوفر المعادن اللازمة في أراضيها ، في حين استورد المماليك المعادن لتصنيعها • وكان لهذا الاستخدام العثماني المتطور تأثير كبير غيَّر وجه الشرق الأوسط بكامله •

* وهذا لا يعني أن الدولة العثمانية لم تغفل جوانب أخرى في قواتها العسكرية ••

تقدم السلطان العثماني سليمان الى فيينا عام ١٥٢٩ م ، وحاصرها ؛ ولكنه اضطر في ١٥ تشرين الأول الى أن يرفع الحصار عن المدينة لقلة المؤن ، ولم تكن حملة سنة ١٥٣٢ م أوفر حظاً من سابقتها • غير أنه استطاع أن يحتل قلعة كُوسَك المجرية ، ولكن الأسطول الأوربي الذي كان يقوده أمير البحر الجنوي « اندريا دوريا » والذي كان يعمل بنجاح على شواطىء شبه جزيرة المورة في اليونان ، لم يلبث أن أضاع على سليمان ثمرة النصر الجزئي الذي أحرزه • لذلك انصرف سليمان بعدها الى تعزيز قوته البحرية في المحل الأول كوسيلة لتلافي هذا النقص في قواته ، هذا النقص الذي سبب اخفاق الحروب العثمانية الأخيرة في أوربة •

ووجد سليمان في شخص خير الدين بربروسا وأخيه عُرُوج ، خير معين له لتحقيق هدفه ، في انشاء أسطول عثماني يضاهي الأسطول الأوربي المتطوِّر ، واستطاع خير الدين بحق أن يترك للعثمانيين بعد وفاته سنة ١٥٤٦ م أسطولاً مجهزاً تجهيزاً حسناً ، وبحارة تمرَّست بالمعارك في سواحل أفريقيا وجزر المتوسط، فليس عجيباً أن يكون هذا الأسطول ، وهؤلاء البحارة أداة فعالة في تنفيذ سياسة السلطان العثماني ومشروعاته •

إن الجمود الذي سبب انهزام المماليك في مرج دابق ، وقعت فيه الدولة العثمانية في سنيها الأخيرة ، فأضر ذلك بالاسلام والمسلمين •

لقد أصبحت القاعدة في أواخر الدولة العثمانية : إبقاء القديم على قدمه . كرهوا التغيير ، فسبقهم الزمن وتقدمت العلوم وازدهرت الصناعات •• وهيهات للجسود والمحنطين أن يقفوا في وجه مطامع الأوربيين المتطورين في وسائل الحرب والصناعة •

وأصبحت هذه السنوات الأخيرة من عمر العثمانيين حجة لغير المسلم على المسلم ، بل حجة للمسلم غير الملتزم على المسلم الملتزم بشريعة الله • لأن كثيراً من أمور الحيـــاة كانت تسير منافية لمتطلبات الحياة ، ومنافية للعقل والتقدم العلمي ، لا لشيء إلا لبقاء القديم على قدمه ، وكل ذلك كان يحدث باسم الاسلام •

وهنا نتذكر الحادثة التالية :

رأى رجل جامد العقل ، ضيق الأفق سكة قطار ، فقال : وهذه لماذا ؟

فقيل له : انتظر قليلاً وسترى جواب سؤالك • فإذا بقطار محمل بعشرات العربات المليئة بمئات الأطنان من البضائع والمواد الزراعية ، مع مئات من أفراد الأمة ، ينقلهم بسرعة ، يوفر عليهم الوقت ، ويؤمن لهم الراحة، مع الأمن والطمأنينة من قبل قوات أمن مرافقة •• فقال هذا الرجل : ركب المسلمون القطار !؟ قالوا : نعم •• إنه أحدث وسائل النقل اليوم ، قال الرجل بغضب : ترك المسلمون ركب الدواب حميراً وجمالاً ؟! قالوا : نعم •• فصار الرجل يصرخ مستغيثاً متضرعا : وامحمداه ! واسلاماه ! واقرآناه ! ضاع المسلمون ، وضاع الاسلام ، لقد تركوا جِمَال محمدٍ ، وخَيْلَ محمد ، لقد تركوا سُنّته ، وركبوا البدعة ، ركبـــوا القطار ، وإسلاماه على ترك السُنّة المحمدية ! انتظروا الساعة ! لقد ترك المسلمون ماركبه موسى وعيسى والأنبياء من قبل ، وركبوا القطار •

مثل هذا التفكير يؤخر تقدم الأمم ، ويقدم لأعدائهم صيداً ثميناً طرياً • فمثل هذا الرجل الجاهل لا يمثل إلا نفسه ، وتفكيره المحنط • إنها آية في كتاب الله عز وجل فيها المعجزة التي لو فهمها ما وقف موقفه الجامد : « والأنعامَ خلقها لكم

فيها دفء” ومنافعُ ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال” حين تُريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إنّ ربّكم **لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً ويخلق مالا تعلمون »** ، **النحل : ٥ ــ ٨ •**

أليس القطار ووسائل النقل الحديثة من طائرات وعربات ومركبات •• من قوله تعالى : « ويخلق مالا تعلمون » •

وهكذا فإن عدم مواكبة ركب العلم بسبب الجمود والتزمت سبب انهزام المماليك في معركة مرج دابق ، وضياع ملكهم ، وتكرر الصورة جعلها هي نفسها سبب ضعف الدولة العثمانية وبالتالي سقوطها أمام ضربات الطامعين بأراضيها من قياصرة الروس ، أو الأوربيين الذين يهمهم ثروة الشرق ومركزه الاستراتيجي الهـــام •

* * *

المنهزمون أمام المبادئ الدخيلة

★ ما أحوجنا اليوم الى النظر في مصـــور العـــالم الفكري ، لا في مصوره الجغرافي !!

إن المسلم المنهزم أمام العقائد المستوردة ، مسلم لم يكتمل إسلامه ، مسلم لم يتثقف بثقافة الاسلام ، ولم يدرسه ، ولم يتعب نفسه في الاطلاع على دينـــه كما جاء صافياً لا شائبة فيه ، فالمنهزم أمام المبادىء المستوردة ، منهزم لأنه فقد السلاح ، فَسَهُلَ على الدخيل الغزو ، وصار يردد ما قيل له دون تحكيم عقل . بل صار « نسخة كربونية » عن تفكير من يملي عليه .

قالوا له : إن الذين يكتبون التاريخ الاسلامي ينتقون منه حوادث ويغفلون دور الحركات التقدمية ، فردد القول معهم كأنه ببغاء مدرب .

وقالوا له : إن التاريخ بجميع حوادثه ووقائعه يجب تفسيره وتعليله بأسباب مادية اقتصادية ، إن أساليب الانتاج هي الأساس الذي يرتكز عليه تاريخ البشرية . وإن المجتمع ينقسم الى طبقات ، والتاريخ كله يتلخص بالنضال الدائم بين هذه الطبقات ، منذ بدأت الملكية الفردية لوسائل الانتاج . فردد معهم ماقالوه له .

وقالوا : إن مَنْ يُفَنِّدُ ما نقوله لك ، وما نحلله « تحليلاً علمياً » . تفنيده سطحي ، وتفكيره سلفي ، ورواياته تقليدية رسمية .. فردد معهم نظرياتهم . ولو أن الواقع ــ وهم يعلمون ــ ينقضها .

وقالوا : إن الاسلام ظلم المرأة ، منعها من العمل والعلم ، وفضـــل الرجل

عليها ، ومنعها من حرية اختيار الزوج .. فردد ما قالوه له ، دون الرجوع الى الاسلام من مناهله الصافية[1] .

الانتقاء الذي نُنْتَقَد به زوراً وبهتاناً ، لم يثبتوه علينا أولا ، ووقعوا فيه فأثبتوه على أنفسهم ، وحق بهم المثل : « رمتني بدائها وانسَلَّت » .

المؤرخون المسلمون عندما تكلموا عن تاريخنا ، تكلموا عنه تاريخاً كاملاً لا انقطاع فيه ، أو اغفال لفترة ، أما هم .. فكانت كتبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم كلها انتقاء : خُرَّمية ، بابكية ، قرامطة ... فتخيروا ما يخدم خطتهم المسبقة ، وطوعوا الأحداث لها ، ليثبتوا فكرة أو نظرية قرروها مسبقاً .

من كتب تاريخنا كاملاً كما جاء في مراجعنا المعتمدة الموثوقة[2] ، رموه « بالسلفية » ، أو أنه يكتب من « روايات رسمية حكومية » ، وهم يعتقدون أن الروايات الصحيحة عن القرامطة والبابكية والخُرَّمية والزنج ... غير موجودة ، وإن ما كتبوه أتلف ، فكيف يحللون ، وعلى أي شيء إذن يعتمدون ؟!؟ كل كلماتهم بناء على أقوالهم تخميناً وظناً ، فوقعوا في الخيال المحض باسم «العلمية» أو « التفسير الاقتصادي للتاريخ » الذي من ضمن ملامحه البارزة « الصراع أو النضال الدائم بين الطبقات » .

يتحدثون عن التفسير العلمي للتاريخ ويكثرون الكلام عن الرؤية العصرية للحركات السرية ، وبعد قراءة نتاجهم يجدهم المطلع الباحث أنهم أبعد الناس عن الحقيقة والعلم ، ويلمس أنهم يطوِّعون الأحداث بلفٍّ ودوران وكأن اللغة العربية تحمل معنيين ، معنى يفهمه الناس عامة منذ مئات وآلاف السنين ، ومعنى اكتشفوه حديثاً ، لا يفهمه إلا هم وأتباعهم .

---

(١) ما يدعون كثير ، رددنا على القسم الاعظم منه في كتابنا « الاسلام فوق الاتهام » واعقبناه بكتاب « آراء يهدمها الاسلام » .

(٢) سبق العلماء المحدثون المسلمون علماء الغرب بقرون ، بوضع أسس دراسة الراوي والرواية، بحكم عملهم في تصنيف الاحاديث النبوية الشريفة ، وهي الاسس نفسها التي تنتهج اليوم في علم مصطلح التاريخ .

تكلموا عن القرامطة ، فكالوا لهم المديح كأول حركة تقدمية اشتراكية في الأمة العربية ، ووقعوا في الانتقـاء • تكلموا عن جوانب وتغافلوا عن جوانب أوسع وأكبر •

ومما يضحك •• أن بعضهم يدعي أن عدم تطبيق مبادىء الاسلام الحنيف كما جاءت به الرسالة الإلهية سبب ظلم هذه الطبقات ، فقامت بحركاتها المناوئـة للدولة العباسية مثلا ••

فكأنهم مسلمون ملتزمون غيورون على دينهم ، وساءهم ألا يطبق الاسلام، فكالوا المديح لهذه الحركات ومنحت وسام « الحركات الجمهوريـة الثوريـة التقدمية الاشتراكية » •

ونحن نقول : إن عدم تطبيق الدين إن صح ذلك بقدر معين ، لا يعني مطلقاً المروق من الدين ، فالخطأ لا يصححه خطأ • إن ظلم بعض الناس من قبل فئة ، لا يعني الكفر بالدين لينتهي الظلم ، بل الدعوة إلى إحياء الدين إحياء صحيحاً ما دام يدعو الى انصافهم ، ومحو الظلم عنهم ، وقد تحقق ذلك حقاً في عهـود عديدة ، عندما طُبِّق الاسلام كاملاً ، فنحن لا نقول لهم : « إن المـريض غير المريض ، ولكن نقول إن الطبيب غير الطبيب ، وإن الدواء غير الدواء » •

بدل الرؤية العصرية نحتاج الى رؤية حقيقية ثابتة ، ولو خالفت أهـواء ونظريات « المحللين العلميين » ، فلا للرؤية العصرية لأنها تتغيَّر بتغيُّر العصر وأهله ، وبحسب الرائي وأهوائه ، فالرفض منطقي للرؤية العصرية ، وللثورة على التراث ، لأننا سنصل الى عشرات الرؤى في كل عصر ، وستضيع بذلك الحقيقة ، أما الرؤيا الحقيقية فإنها باقية ثابتة لكل الأعصر ، هكذا كانت الأحداث مجردة ، وهكذا حدثت في زمان وقوعها •

فكرهم هو الصحيح دوماً ، وقولهم الحق بلا تمحيص ، وهم أصحاب الرأي القويم السديد دون منازع ، وهم الذين اتضحت لهم الرؤيا صافية جلية لا شائبة

فيهــا ، فهم فيما يقولون مستنيرون مجددون ، وهم وحــدهم الــذين عرفوا الحقيقة •• ومن يعارضهم لتجنبهم للحقيقة ، ومن يناقشهم ليكشف أهواءهم ، ويظهر الحقيقة دون هوى ، فهو قاصر الفهم ، شاذ الرأي ، رجعي الفكر ، سلفي المنهج ، غير موضوعي المنطلق •

من يفند نظرياتهم يصفونه بعدم الإلمام بالموضوع من جميع جوانبه ، ولم يستطع استشفاف القضية الجوهرية المطروحة ، وأطره التي يكتب منطلقاً منهــا أطر أسطورية ساذجة • ومن ايديولوجية غيبية •

إن ما كتبوه قصدوا منه تفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً ، مغفلين كــل الجوانب الأخرى في المجتمع ، وكتبهم كلها تقصد اظهار المجتمع في صراع طبقي مستمر حتى يصلوا الى النبوءة الكبرى بزوال الطبقات التي تستولي على وسائل الانتاج ، ولا يبقى فيه إلا عامل ومعمل • والواقع ينطق أن وسائل الانتاج آلت شيئاً فشيئاً إلى أيدي خبراء الصناعة والاقتصاد ، وأن الحكومات المتصرفة في الانتاج والتوزيع لن تستغني عنهم ، فعلى الأدمغة الخبيرة تسير الصناعة ، وتتقدم المعامل ، ويُسَيَّر العمال •

وإن في المجتمع الحالي طبقة غير طبقتي العمال وأرباب العمل ، هي الطبقة الوسطى التي تضم صغار الصناع والمزارعين والتجار وأصحاب المهن الحرة ، وهي فئة لم ترتفع كما أثبت الواقع الى سوية البورجوازيين، ولم تنصهر بالطبقة العاملة• علماً أن التضامن بين أفراد الطبقة الواحدة غير موجود ، والمصالح في الطبقــة الواحدة ليست متوافقة دوماً ، فالتنافس والتسابق على احتلال المراكز الشاغرة في المعامل معروف في الواقع ، والتضارب بين مصلحة العمال وأرباب العمل ليس موجوداً دائماً ، فالجميع يعمل في مشروع واحد ، ولمصلحة مشتركة تفــرض التعاون على النهوض بالمشروع ، والحيلولة دون افلاسه أو خسارته ، وهي تقابل مصلحة العمال ورب العمل في المشروع المنافس •

إن النضال بين الطبقات يستند الى مصلحة مادية بحتة ، والحرب العالميــة

الثانية : أثبتت أن الرابطة الوطنية أو القومية لها دورها الكبير في المجتمع .. والتاريخ خير شاهد على أن الطبقة المظلومة في عرف الرؤيا العصرية لم تكن متكاتفة مطلقاً ، وإلا فبماذا نفسر عدم تعاون صاحب القرامطة مع صاحب الزنج[1] ؟! لا يُفَسَّر عدم التعاون إلا بعد توحد الهدف ، واختلاف المطامع المادية الدنيوية . ولماذا لم تتوحد الطبقة المظلومة العربية والفارسية ؟ وأين نضال الطبقات الموحَّد ضد السلطة « الرجعية » في الخلافة الاسلامية على ادعائهم ؟!؟

وإن التحليل العلمي للتاريخ ، أو التفسير المادي له بشكل نجعله يطغى على كل جوانب وأسباب سير التاريخ أمر مبالغ فيه ، ولم يقله من قال بتفسير التاريخ تفسيراً مادياً اقتصادياً طبقياً ، وهذا ليس من عندنا ، بل قاله مؤسسو الفكر المادي :

* أرسل انجلز الى كونراد سميث في ١٥ آب ١٨٩٠ رسالة مما جاء فيها حرفياً : « نجد الكثيرين من الناشئين الألمان يكتفي باستخدام عبارة المادية التاريخية ـ (وكل شيء يمكن تحويله الى اصطلاح)[2] ـ لكي يجعلوا من معلوماتهم التاريخية القليلة نسبياً نظاماً دقيقاً بأسرع ما يمكنهم ذلك ، ثم بعد هذا ينظرون الى أنفسهم نظرة عالية جدا » .

وجاء في رسالة انجلز الى يوسف بلوخ بتاريخ ٢١ أيلول١٨٩٠ : « إن توجيه الكتاب الناشئين **الاهتمام إلى الجانب الاقتصادي بأكثر مما يستحق** أمر يقع اللوم فيه على عاتقي وعاتق ماركس ، لقد كان علينا أن نؤكد هذا المبدأ الرئيسي لنعارض خصومنا الذين كانوا ينكرونه ، ولم يكن لدينا دائماً الوقت أو المكان أو الفرصة لنضع **العناصر الأخرى** التي تتضمنها العلاقة المتداخلة في مواضعها الحقيقية .. ولسوء الحظ كثيراً ما يحدث أن الناس يتصورون أنهم قد فهموا

---

(١) دليل واضح لعدم وجود تفسير طبقي للمجتمع أيام القرامطة . عدم اتفاقهم مع الزنج . بل ان التنافر الموجود بين مبادئهما صرف النظر عن الفائدة التي تعود عليهما نتيجة لهذا التحالف من الناحية العسكرية على الاقل .

(٢) هذه العبارة من مضمون الرسالة .

نظرية ما فهماً تاماً ، ويستطيعون تطبيقها دون كبير عناء ، وذلك منذ اللحظة التي يتمكنون فيها من الإلمام بالمبادىء الرئيسية التي تقوم عليها النظرية ، بل إنهم قد لا يدركون هذه المبادىء دائماً الادراك الصحيح ، ولا أستطيع أن أعفي من اللوم الكثيرين من الماركسيين الأحداث عهداً ، إذ من هذه الناحية خرجت أشد الأشياء تفاهة وسخفاً » .

ومن رسالة أرسلها ماركس من بروكسل بتاريخ ١٨٤٦/١٢/٢٨ إلى ف. انتكوف جاء : « إن تاريخ الناس الاجتماعي ليس إلا تاريخ تطورهم الفردي سواء أكانوا يشعرون به أم لا يشعرون » .

وقال انجلز لكونراد سميث في رسالة أرسلها من لندن في ٢٧ تشرين الثاني ١٨٩٠ : « من الصعب أن نبرهن على أن الحرية المطلقة التي ينعم بها الموصى في انجلترا ، والقيود الشديدة المفروضة عليها في فرنسا هي أسباب اقتصادية في جميع تفصيلاتها »[١] .

ومما سبق نجد أن وضع التفسير الاقتصادي ، أو التحليل العلمي ، لم يجعل الناحية الاقتصادية هي كل شيء ، تشمل كل القيم الأخرى في المجتمع ، وما أحوجنا اليوم الى النظر في مصور العالم الفكري لا في مصوره الجغرافي أو الاقتصادي .

ومن يكتب على ضوء التفسير الاقتصادي أو التحليل العلمي نجده « ملكياً أكثر من ملك » ، يجعل الناحية الاقتصادية تشمل كل القيم الأخرى في المجتمع ، ونجده فاقداً للأمانة التاريخية في نقل النصوص ، فهو إما ينقل فقرة من نص ، وإما نصاً من موضوع ، وإما أن يحرّف الكلم عن مواضعه ، أو يتناسى فكره ، أو يطمس قولاً ، أو تراه يزيد كلمة أو كلمتين ، أو فقرة أو فقرتين .

ومثال ذلك قول أحدهم وهو يحلل بدايات المجتمع العربي ــ الاسلامي

(١) النصوص هذه من كتاب التفسير الاشتراكي للتاريخ للدكتور راشد البراوي ، نشر دار النهضة العربية ، ط : ٢ ، سنة ١٩٦٨ . صفحة : ١٣٠ وما بعدها .

الوسيط ، فجعل النبي ومن معه يميناً ، وقريش ووثنيتها يساراً ، ثم أوردالبند الأول من صلح الحديبية على نحو يخدم مايريده لا بما تريده الحقيقة ليحقق ما يهدف : « وضع الحرب بين المسلمين الثائرين والقرشيين التجار والمـرابين عشر سنوات »[1] .

والنص كما أورده « المحلل العلمي » انطلاقاً من « تفسيره الاقتصادي » لا يجده المؤرخ الباحث في أي مرجع ، فالنص كما جاء في تاريخ الطبري ، وفي الكامل في التاريخ ، وفي البداية والنهاية وغيرها من المراجع العربية ، حتى الأجنبية ككارل بروكلمان .. ليس هذا نصه ، والنص الصحيح كما رواه الطبري مثلا :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضـع الحرب عن الناس عشر سنوات يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض »[2] . وبمقارنة ما أورده « المحلل العلمي » والمفسر الاقتصادي نجد الفارق الكبير بين النصين ، وبالتالي صدق النقل ، وصدق التفسير .

ومن موضوعيتهم ، وعدم سلفيتهم ، ومن منهجهم العلمي قول لوتسكي في كتابه « تاريخ العرب الحديث » عن سليمان الحلبي « الأرهابي » ، وعن المجاهدين المسلمين الذين صدوا العدوان الاسباني على سواحل المغرب العربي « القراصنة العرب المسلمين »[3] ...

والمنهزمون فكرياً يندبون حظ المرأة في الشرق ، ويوجهون الى الإسـلام اتهامات بشأنها ، وتراهم ينظرون الى حرية المرأة الأوربية حيث نالت كامل حريتها ، وتساوت بالرجل وأكثر ، وقالوا إنها هناك مكرّمة ، شاركت الرجل في المصنع وفي بنـاء الاقتصاد ، وفي مسيرة المجتمع ، أما هنـا .. فحالتها على ضوء تعـاليم الاسلام مؤلمة .

---

(١) لاحظ التخبط : « قريش ووثنيتها يسارا » ، ثم نص الصلح كما أورده « المسلمين الثائرين » فهم يسار حسب رأيه ، « والقرشيين التجار والمرابين » فهم هنا من اليمين !؟!

(٢) راجع الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٦٣٤ ، طبعة دار المعارف .

(٣) كتاب « تاريخ العرب الحديث » ص : ٧و٨ ، و ص : ٥٤ .

وقبل تفنيد آخر ما وُجّه الى الاسلام من أوهام لا يعرفها ، ومن اتهامات هو بريء منها ، نستعرض آخر البحوث الاجتماعية عن المرأة العربية مقارنة بالمرأة الغربية ، والتي تمت تحت إشراف الأمم المتحدة[1] .

إن الدولة التي أعطت المرأة حرية كاملة هي السويد ، حتى أن فلسفة التربية قد تحررت تماماً من تجهيز واعداد الولد ليكون رجلا ، ومن تجهيز واعداد البنت لتكون امرأة ، فليس في فلسفة التربية في السويد التمييز بين تهيئة الذكر للخشونة وقساوة الحياة ، وتهيئة البنت لتكون أنثى ، والأنوثة لا تعامل برعاية خاصة لأنها أنوثة ، وهي لا تعتبر قريناً للضعف الطبيعي أو الرقة أو الدلال ، بل ان كلاً من البنت والولد يُهيَّآن نفسياً للحياة على أساس إنساني محايد ، حتى الجنس جردوه من معنى السالب والموجب ، ولم تعد تستعمل في القاموس السويدي كلمة « اغواء » بالمعنى الكلاسيكي في لغات أخرى ، والتي تجعل انتهاك العِرْضِ تهمة قاصرة على الرجال في حق النساء . ومن تحصيل الحاصل أن كلمة « عُذرية » انقرضت تماما .

وحرية المرأة في السويد شسلت الحمل ، فالمرأة السويدة لا تريد أن تفقد حريتها في المتعة والانطلاق ، ولا تريد أن تقاسي من الحمل والولادة ، فهي تريد الطفل جاهزاً ، ولهذا فان الفتاة السويدية التي تريد التخلص من الولادة ، لا تتعب ولا تحتار ، بل فتاة أخرى تتقاضى أجراً لأنها قامت بمهمة الحمل بالنيابة عن الزوجة التي لا تريد التعرض لهذه التجربة ، بل تريد أن تأخذ الطفل جاهزاً[2] .

السويد التي تبدو كأنها تنتمي الى جمهورية أفلاطون ، فالدولة هي أم الطفل ، وهي لا تنظر الى شهادة ميلاده ، ولا يهمها إن كان شرعياً أو غير شرعي ، وهي تعفي الأم التي أوصلته الى عتبة الحياة من أي التزام برعايته ، بل إنها تدفع

---

(١) كلفت الامم المتحدة القاضية السويدية « بريجيدا أولف هامر » بهذا البحث . ونشرت « الاسبوع العربي » البحث المذكور في عددها رقم : ٨٢٠ . الصادر بتاريخ : الاثنين ٢٤ شباط ١٩٧٥ .

(٢) وهذا هو السبب في أن الانساب في السويد أصبحت « سمك لبن تمر هندي » !!

لها ما يعادل مائة ليرة سورية شهريا على كل طفل تضعه منذ لحظة الميلاد حتى سن السادسة عشرة ، وبعد الحاضنات والرواتب المرتفعة تتعهده بوجبات غذاء كاملة ، وبتعليم مجاني الى المرحلة التي يشتهيها ويتحملها •

السويد هذه أحسَّ بها المواطن بالأمان والرفاهية والمنعة الى حد أنها منحت في دستورها حق الاضراب عن العمل في ظل القانون لكل فرد فيها ، حتى الضباط في الجيش السويدي ، وبالفعل فقد مارس الضباط السويديون هذا الحق منذ أربع سنوات تقريباً ، حين أرادوا أن يملوا على الحكومة حق السماح لهم بممارسة أعمال إضافية في المساء ، أو بعد فراغهم من الخدمة العسكرية ، حيث عمل بعضهم في فترات فراغهم كموظفي استقبال في الفنادق ، أو فنيين في المصانع الالكترونية ، أو في مرآب صيانة سيارات ••

والشعب السويدي أعظم شعب قارىء في العالم . فمتوسط توزيع الصحف هناك خمس وخمسون نسخة لكل مائة فرد •

والسجين السويدي يكلف الدولة ما يعادل مائة ليرة سورية يومياً ، في حين يكلف الشرطي خمس وسبعون ليرة سورية في اليوم ، فالسجن السويدي يكاد يكون فندقاً يقدم الطعام والشراب لنزلائه ، ثم يقدم أجراً على عملهم في مصنع السجن قدره عشر ليرات في الساعة الواحدة من ساعات العمل التي يبلغ معدلها أربعين ساعة عمل زيادة ، وله حق استقبال الزوار مرة كل أسبوع لمدة ست ساعات ، وله الحق في اجازة ثمانية وأربعين ساعة كل شهر يقضيها مع زوجته أو أسرته ، ثم يعود الى السجن بعد انتهاء الإجازة •

من السويد ، من هذه البلاد التي أعطت المرأة كل شيء ، أعطتها الحرية بكل معانيها وحدودها ، اختارت الأمم المتحدة القاضية السويدية : « بريجيدا أولف هامر » لدراسة مشاكل المرأة الشرقية العربية على الطبيعة ، ومدى ما يصل إلى المرأة العربية في مختلف بيئاتها وتقاليدها ، من حقوقها المكفولة لها في دساتير

وقوانين البلاد العربية • فدرست « بريجيدا » المرأة في الشرق من أعماق المرأة الصعيدية في أبي طشت في صعيد مصر ، الى أعماق المرأة التونسية في سيدي تسراز في تونس ، الى عمق أعماق المرأة الليبية في مصراته ، والى عمق أعماق المـــرأة العراقية في السليمانية •

وكان اعتقـــاد القاضية السويدية التي مارســت الحرية في بلادهـــا الى أقصى حدودها ، والتي درست عن كثب المرأة الشرقية **أن المرأة الشرقية في قطاعات كثيرة وبارزة من البلاد العربية التي زارتها أكثر حرية من المرأة السويدية •**

وقالت « بريجيدا » : المرأة القروية في صعيد مصر ، والمرأة البدويـــة في أعماق فزان بليبيا ، على الرغم من عزلتها عن المجتمع ، **فإنها تمارس وضعاً ينتمي إلى القداسة لا الى العبودية ،** وتتسلط على الرجل تسلطاً فعلياً . ابتداء من شؤون النهار ، وانتهاء بشجون الليل •

بل إن القاضية السويدية تعتقد أن للمرأة الشرقية عالمها الحالم الخاص ، ومن هنا ينبثق تعريف « الحرية » عند القاضية السويدية التي قضت زهرة عمرها تعمل في ميادين التربية والتعليم في بلادها ، ثم انتقلت الى مناصب القضـــاء أخيراً • فالحرية عندها هي أن يكون للانسان عالمه الخـــاص المستقل ، بعكس المـــرأة السويدية التي ليس لها عالم لا يشاركها فيه الرجل ، وبعبارة أخرى فإن المـــرأة الغربية ــ والسكندينافية بوجه خاص ــ (قد داخت سبع الدوخات) لكي تنال حريتها في المساواة بالرجل لتكتشف بعد أن وصلت الى ذروة تلك الحرية أنها حرية لا ترتد حتى عن حافة حرية الجنس ، هي حرية وهمية لأنها لم تمنح المـــرأة في الحقيقة المساواة بالرجل إلا بعد أن جردتها من صفاتهـــا الأنثوية ، وحقوقهـــا الانثويـــة ، وحريتهـــا الانثويـــة ، لتجعـــل منهـــا كائنـــاً أقرب الى الرجل • **إنها حرية ساكن الجنة الذي سعى الى النزول الى الأرض ، أو حرية الطاووس الذي سعى الى أن يكون غراباً : ((وباختصار ، هي حرية المرأة في أن تكون رجلا)) •**

وتضيف القاضية السويدية بريجيدا قائلة : إن حرية المرأة العربية تعايش

حرية الرجل دون أن تمسَّه ، فكل منهما حر في ميدانه وبطريقته الخاصة ، أما المرأة الغربية المنعمة ــ والسويدية بالذات ــ فانها تمارس حرية تنقص حرية الرجل وتخنقها وتزاحمها •

وتعلن « بريجيدا » أن الحركات النسائية في السويد تميل الى أن تجعل من عام ١٩٧٥ ، العام العالمي للمرأة ، عاماً لتحرير الرجل السويدي ، وترى المرأة السويدية أنها قد انساقت وراء حريتها لدرجة أنها حرمت الرجل من مسراته التي تنعكس مباهجها على متعة المرأة نفسها ، وعلى أنوثتها ، وعلى كيانها ، وعلى سعادتها ، فالرجل السويدي قد حرم نهائيا من (سعادة) مسؤولية رعاية الأسرة والقوامة عليها ، وحمل أعباء البيت ، والاشتراك في الاشراف على تربية الأولاد ، لأن المرأة لا تكتفي فقط بأن تشاركه هذه المسؤولية ، بل إنها أحياناً تتفوق عليه وتغتال مسؤوليته بأمر القانون ، فقد عُدّل أخيراً قانون الطلاق السويدي بحيث جعل رعاية الأولاد حقاً أوتوماتيكياً مكفولاً للأم ، حتى لو كانت هي التي طلبت الطلاق • كما أباح القانون الحرية الجنسية للمرأة الى أقصى حد ، لدرجة جعلت الرجل هو الفريسة ، والمرأة هي الصياد •

والنتيجة ، على مستوى الأمة ، مذهلة حقا ••

ففي تقرير رسمي خطير لوزارة الشؤون الاجتماعية السويدية تعلن الحكومة أن ٢٥ في المئة من سكان السويد مصابون بأمراض عصبية ونفسية ، وأن ٣٠ في المئة من مجموع المصروفات الطبية في السويد تنفق في علاج الأمراض العصبية والنفسية • وأن ٤٠ في المئة من مجموع الأشخاص الذين يحالون الى التقاعد ــ قبل سن المعاش ــ بسبب العجز عن العمل تماماً هم من المرضى المصابين عقلياً •

وتسفر ظاهرة انتشار الأمراض العصبية عن نفسها على هيئة ارتفاع مذهل في نسبة حوادث الانتحار ، ففي الفترة ما بين سنتي ١٩٥١ و ١٩٦٨ تضاعفت حالات انتحار النساء السويديات ، وخصوصاً النساء اللواتي تتراوح أعمارهن

بين ٢٥ و ٢٩ سنة ، إذ زادت من ٢ر٦ حالات من كل مائة ألف امرأة ، الى ١ر١٢ حالة ، في حين لم تسجل حالات انتحار الرجال أي ارتفاع •

وتقول بريجيدا معلقة : إذاً من المستحيل تجاهل الربط بين هذه النسبة المتضاعفة بهذا الشكل الغريب واضطراد الحرية التي تمارسها المرأة السويدية في الحقبة الزمنية ذاتها •• أو على حد تعبير تقرير وزارة الشؤون السويدية : هناك خطأ ما في العلاقة بين الفرد والمجتمع ، فدولة الرفاهية لا تزيد من سعادة الفرد ، كما هو متوقع ، وانما تضعف شخصيته واحساسه بالمسؤولية ، مما ينتج عنه تحلل هذه الشخصية •

وبعد أن تلفت القاضية السويدية انتباهنا الى أن صاحبة التقرير الرسمي في وزارة الشؤون الاجتماعية السويدية امرأة ، تصحبنا في جولة بين حقائق مجتمع الرفاهية السويدي ، تربط خلالها ــ وهذا مهم ــ بين اضطراد العلاقة بين حرية المرأة السويدية ورفاهية مجتمعها اضطرادا متزايدا من جهة ، والاضطراد العكسي بين تلك الحرية وبناء شخصية الرجل السويدي ، الأمر الذي يجعل تحرير الرجل هناك من عواقب حرية المرأة أمراً لازما وحيوياً لشعور المرأة السويدية بأنوثتها وكيانها •

ومن مشكلات السويد والتي نجمت عن حرية المرأة ، مشكلة المسنين • فالمسنون في السويد أتعس خلق الله رغم الرعاية الاسطورية التي يضفيها عليهم المجتمع ، ابتداء من المعاشات السخية التي تصل الى ما يعادل أربعة آلاف وخمسمائة ليرة لبنانية في السنة لكل من بلغ سن الستين ، ثم المساكن الفخمة المفروشة التي ينال فيها كل مسن ــ رجلاً كان أو امرأة ــ جناحاً مستقلا يدفع فيه ١٠ في المئة من ايراده (أياً كان هذا الايراد ، أي أن المسكن الواحد يتفاوت ايجاره بتفاوت ايرادات من يسكنونه) ، ثم الرعاية الصحية والاجتماعية الكاملة•

رغم كل هذه التسهيلات الخرافية ، فان الاحساس المحض بالوحدة والاغتراب يضفي نوعاً من القتامة والجهامة على المجتمع السويدي . لارتفاع نسبة

المسنين فيه ، فالأولاد والبنات حين يكبرون يفترقون أوتوماتيكيا عن عائلاتهم ، وانخفاض نسبة الانجاب تزيد في قساوة الوحدة التي تكاد تقضي على معنويات الآباء ، وليس للمشاعر العائلية في مجتمعاتهم قداسة تشبه قداستها في المجتمعات الشرقية ، ومن هنا يمكن تصور الآلام النفسية المفزعة التي يشعر بها المسنون في السويد .

شيء واحد يخفف من تجهّم هذه الصورة في مستعمرات المسنين ، هو قصص الغرام التي تنشب بين العجائز بعد سن السبعين وأحياناً سن الثمانين ! ولكن سرعان ما يدب الخلاف ويلجأ الجميع الى ساحات الطلاق ، الأمر الذي يجعل حياة هؤلاء الناس خليطاً من المأساة والملهاة !!.

هذا ماقالته القاضية السويدية « بريجيدا » بمناسبة عام المرأة ١٩٧٥ . علماً أن المعاهد العلمية في السويد ، أجرت استفسارات عن « الحب الحر » ، وتبين أن ٨٠ في المئة من نساء السويد مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج ، و٢٠ في المئة بقين بلا زواج .

وأدت « حرية الحب » بطبيعة الحال الى الزواج المتأخر ، والى الخطبة الطويلة الأجل ، مع زيادة عدد الاطفال غير الشرعيين . والنتيجة الطبيعية بعد ذلك أن يزيد تفكك الأسرة .

وإن نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم طبقاً للاحصاءات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد ، وسبب ذلك أن ٣٠ في المئة من الزيجات تتم اضطرارا تحت ضغط الظروف بعد أن تحمل الفتاة ، والزواج بحكم الضرورة لا يدوم بطبيعة الحال ، كالزواج العادي ، ويشجع على الطلاق أن القانون السويدي لا يضع أية عقبة أمام الطلاق إذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق فالأمر سهل جداً ، وإذا طلب أحدهما الطلاق ، فان أي سبب بسيط يقدمه يمكن أن يتم به الطلاق .

وهذا التخبط في حياة الأسرة والزوجين يسود النرويج والدنمرك أيضاً ، والحال في أمريكا لا تقل عن هذه الحال ، ويكفينا القول ان لجنة الأربعة عشر الأمريكية ، التي تعنى بمراقبة حالة البلاد الخلقية قد أكدت أن ٩٠ في المئة من الشعب الأمريكي مصابون بالأمراض السرية الفتاكة وذلك قبل وجود مضادات الحيويات كالبنسلين والاستريبتومايسين . والحالة ذاتها في الدول المادية الشرقية ، حيث ستار حديدي من التكتم لبؤس المرأة ولتفكك الأسرة ، خصوصاً والمرأة هناك تعمل الأعمال المضنية مما أفقدها أنوثتها وجعلها أشبه برجل[1] .

فهذه هي الحرية ، وها هي نتائجها . هذه هي المشكلات جلية واضحة في أكثر دول العالم تقدماً وعلماً ، وهذه هي الدراسات تنطق بالألم والحسرة وبالنتائج المحزنة .

وبعد هذه الدراسات كلها ، التي يمكن الاستفادة من نتائجها لتحاشي الانهيار الذي وقعوا فيه ، وعلى الرغم من صيحاتهم أن المرأة في بلادنا أميرة في قصر سعيد ، يطالعنا بعض أصحاب الأفكار المادية بين حين وآخر بتهجم مصطنع على الاسلام ، مطالبين بتحرر المرأة ، دون تحديد لمفهوم الحرية ، مع أنه يستشف من كتاباتهم في كثير من الأحيان ، أنهم يريدون انفلات المرأة من حشمتها ، ومن النظم الاجتماعية التي ترسم خطوطاً واضحة لتنظيم العلاقة بين الذكر والأنثى ، وهذه الخطوط الواضحة لا ترضيهم ، لأنها لا ترضي غرائزهم الجامحة ، فطالبوا بالفوضوية ، ولكن تحت كلمة عذبة في المسامع ، انها « الحرية » .

والأفكار التي نسمعها اليوم من نساء أيضاً ، هن حتماً دون سن النضج ، أو من المعقدات نفسياً ، وبعد الأربعين من العمر نسمع منهن ما لم نكن نسمع من قبل .

وقبل البدء بتفنيد آخر الاتهامات نقول : يظهر جلياً أن معظم الذين هاجموا

---

(١) تجد هذه المعلومات موسعة في ظلال القرآن ، الجزء الثاني ، صفحة : ٣٣٠ وما بعدها . باستثناء المعلومات الحديثة فهي من « الاسبوع العربي » العدد ٨٢٠ ، تاريخ ١٩٧٥/٢/٢٤ .

تنظيم الإسلام للأسرة ، مثقفون من طرف واحد ، لم يطلعوا على الاسلام ، وهذا لا نشك فيه ، وإن اطلعوا فاطلاع عابر سريع لأخذ نقاط مبتورة ترضي مايرغبون.

فالكتب التي كتبت عن المرأة في حدود النظم الإسلامية كثيرة ، ولو اطلعوا على بعضها لما قالوا ما قالوه ، ومنها كتاب « نحو مجتمع إسلامي » وفصل المرأة وعلاقات الجنسين في كتاب الاسلام ومشكلات الحضارة ، وكتاب « الحجاب »، وكتاب « تفسير سورة النور » للأستاذ المودودي ، وكتاب « الأسرة والمجتمع » وكتاب : « حقوق الانسان » للدكتور علي عبد الواحد وافي ، وكتاب : « الانسان بين المادية والاسلام » لمحمد قطب ... ولقد اعتمد عليها المرحوم سيد قطب في تفسير سورة النساء في ظلاله ، فجاء التفسير عذباً رائعاً .

ونقول مع سيد قطب :

« ما يحسب على الاسلام هو الذي ينشأ وفق أحكام الاسلام وأصوله وتصوراته وشرعته وموازينه ، أما ما يقع في المجتمع الذي ينتسب الى الاسلام خارجاً على أصوله وموازينه ، فلا يجوز أن يحسب منه ، لأنه انحراف عنه »[1].

من آخر الاتهامات التي وجهت للاسلام ، الذي لا يطيقون عليه صبراً ، وهم يصبرون على كل المذاهب والأديان ، لا يطيقون عليه صبرا لأنه نظام اجتماعي وحياتي متكامل ، له منهجه وتصوراته وحلوله ..

من تلك الاتهامات قول احداهن : « المدرسة التقليدية تعالج مسألة المرأة بسلسلة من أحكام الحلال والحرام تتسع دائرتها وتضيق حسب درجات التطور الاقتصادي والاجتماعي ، لا حسب مبادىء ثابتة » .

هذه وجهة نظر لا دليل عليها ، وكأنها تقول إن اللغة العربية تقرأ وتكتب ضمن أحرف ليست ثابتة ، أين الدليل ؟

الإسلام منهج ثابت في أصوله ومقوماته والنصوص القرآنية ثابتة لم يتغير

---

(١) الظلال ، جـ : ٢ ، ص : ٢٥١و٢٥٢ .

منها شيء حتى رسم كلماتها ، والسنة النبوية جلية واضحة ثابتة الى يومنا هذا .
وإن كانت هناك بعض الأقوال لعدد من العلماء ، فليست الحجة على الاسلام ، لأن العصمة في التشريع والتفسير للأنبياء وحدهم .

لو قلنا إن ماركسيا أكل جهد عامل ، لقالوا فوراً : ليس هذا من الماركسية ، ولا يمكن قياس هذا الانسان على المبدأ . أما في الاسلام ، فقول لعالم أو فقيه أو باحث مجتهد ، إن خالف أمر الله ورسوله صراحة ، يتناسى الحاقدون الأصل ، ويغيرون وحدة القياس ، ويتمسكون بما قيل ، ويصبح عندهم حجة قاطعة .

إن قال ماركسي : إن المصالح بين العمال وأرباب العمل ليست متضاربة ، اتهموه بالردة ، وهذا ما فعلوه مع روجيه غارودي[1] المفكر الشيوعي ، عضو المكتب السياسي واللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي ، حيث اتهموه أنه بات يسينياً وتحريفياً وانقسامياً ، مع أنه دافع عن الفكر الماركسي طوال ست وثلاثين سنة لما نادى باشتراكية وطنية في كل بلد بحسب ظروفه التاريخية والاجتماعية ، وليست اشتراكية تكون نسخة كربونية عن اشتراكية روسيا ، نسوذج للاشتراكية يتفق مع بنية كل شعب وتقاليده التاريخية ومستواه ، ومما قال هذا المفكر : « العسف في الاتحاد السوفييتي نفسه ليس حيال الكتّاب فحسب ، بل حيال أي امرىء يضع النظام موضع التساؤل ، ولسوف نرى أن الأمور تجري جميعاً من فنلندا حتى اسبانيا واليونان كما لو أن الخطر الرئيسي بالنسبة الى القادة السوفييت هو انتصار اشتراكية انسانية الملامح يخشى من عدواها كما كانت الحال في براغ بالأمس »[2] .

وقال : « إن الاشتراكية التي نريد بناءها في فرنسا ، ليست الاشتراكية التي تفرضونها على تشيكوسلوفاكيا »[3] .

---

(١) قال غارودي : « لم يعد الصمت ممكنا » وألف كتاب : « منعطف الاشتراكية الكبير » نشر دار البعث ، ثم كتاب : « الحقيقة كلها » نشر دار دمشق ، فأقصي عن المكتب السياسي وعن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي ، وأخيرا فصل من الحزب .
(٢) أقوال من كتابه « الحقيقة كلها » صفحة : ١٠ .
(٣) منعطف الاشتراكية الكبير ، صفحة : ١٢ .

إن قال ماركسي ما قرأناه في الأسطر السابقة ، قالوا : مرتد ، تحريفي ، انقسامي .. وإن قال مجتهد بحّاثة أمراً يخالف الاسلام في نصوصه الثابتة الأصول والمقومات تمسكوا به ، ولا يقولون : إنه يحسب عليه وحده ، أو اجتهد وأخطأ ، والمبدأ ينص على غير هذا .

وقالت امرأة : « حين نودي بتعليم المرأة كان ذلك بدعة وضلالة ، وحين أصبح تعليم المرأة حقيقة واقعة ، أفتوا بحله ، ثم ذهبوا الى فرضيته » .

ونحن نقول : إن الاسلام لا يعترف بسياسة الأمر الواقع مطلقاً ، وها قد مر عليه أربعة عشر قرناً ، وها هو ذا يشارف على قرنه الخامس عشر ، ولم يغير نظرية واحدة من نظرياته ، ولم تأت حقيقة علمية تخالفه ، بل تجد فيه الأمم اليوم حلولاً لمشكلاتها وتعتبره مصدراً من مصادر تشريعاتها في قلب أوربة .

لذلك ، نظم الاسلام الحياة على قواعد لم تتبدل والاصل من فم رسول الله ﷺ :

- « العلم فريضة على كل مسلم » .

- « ليس مني إلا عالم أو متعلم » .

وفي كتاب الله عز وجل : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »[1] .

« قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب »[2] .

فالآيات والأحاديث إن لم تحدد ذكرا كان المتعلم أم أنثى ، كان الاطلاق واضحاً فيها[3] . ولو صح قولها أن تعليم المرأة كان بدعة وضلالة ، لما وجدنا على

---

(١) سورة المجادلة ، الآية الكريمة : ١١ .
(٢) سورة الزمر ، الآية الكريمة : ٩ .
(٣) كلمة مسلم . تشمل المسلمة على تغليب المذكر .

مر تاريخنا الاسلامي منذ صدره الأول والى أن أفتوا اليوم بضغط من سياسة الأمر الواقع بفرضيته ، لما وجدنا مسلمة متعلمة ، وهذا يخالفه الواقع ، والتاريخ خير شاهد .

والأمثلة أكثر من أن تحصى ..

فمن صدر الاسلام ، كان هناك صحابيات يروين أحاديث النبي ﷺ ويحفظنها وينقلنها الى غيرهن من الناس . وبالرجوع الى مسند الامام أحمد : الجزء السادس ، صفحة ٤٠٢ الى صفحة ٤٦٤ نجد نساء كثيرات[١] قد روين عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة ، وعددهن ٧١ امرأة ، ومنهن :

أم كلثوم بنت عقبة ، ورقة بنت عبد الله ، سلمى بنت حمزة ، خولة بنت حكيم ، خولة بنت عامر ، فاطمة بنت قيس ، أم حكيم بنت الزبير ، فاطمة بنت أبي حبيش ، فريعة بنت مالك ، سلمى بنت قيس . أم حرام بنت ملحان ، سويدة بنت زمعة ، جويرية بنت الحارث ، أم العلاء الأنصارية ، أم جميل بنت المجلل ، أسماء بنت عميس ، أم عمارة بنت كعب ، أم الدرداء ، ميمونة بنت سعد ، حفصة بنت عمر بن الخطاب ...

وللسيدة عائشة رضي الله عنها استدراكات على الصحابة . جمعت في كتاب: « الاجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة » ، تأليف الامام بدر الدين الزركشي ، تحقيق الاستاذ سعيد الأفغاني ، نشر المكتب الاسلامي ، فعائشة قمة في العلم والتعليم ، بل في النقد والتعديل والتصحيح .

وفي « الأعلام » للاستاذ خير الدين الزركلي ، لا نقول عشرات ، بل نقول مئات ومئات من العالمات المسلمات .

وفي « سير أعلام النبلاء » للحافظ الذهبي مئات العالمات الفقيهات أيضا .

---

(١) طبعة صادر والمكتب الاسلامي « بيروت » ، راجع في المسند ، ص : ١٩ مسند السيدة عائشة ، ومن ص ٢٨٢ الى ٣٨٢ راويات ، ثم من ص ٤٠٢-٤٦٤ تتمتهن .

وفي نهاية « تاريخ بغداد » للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، عشرات النسوة الشهيرات المتعلمات، اللواتي كان لهن أثرهن في المجتمع الاسلامي .

وفي « أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام » للأستاذ عمر رضا كحالة مئات ومئات من المسلمات المتعلمات المحدثات ، لو أردنا ذكر أسمائهن جميعا ، لكتبنا مجلدا أو مجلدين . وإن كتب التراجم زاخرة بمئات المسلمات العالمات المربّيات اللواتي تربى على أيديهن ، ونهل من علمهن علماء أجلاء كانت لهم قدم راسخة في العلم والمعرفة والأدب . والجهل بما تحويه مصادرنا العربية مما أشرنا اليه سابقا ، يدل على ادعاء وتعالم ، ممن يفند ويزعم أن الاسلام حرم المرأة حقوقها أو حريتها ..

وهذا مثال واحد منهن :

« ست الوزراء بنت عمر بن أسعد التنوخية الدمشقية » : « محدثة ذات أخلاق فاضلة ، ولدت سنة ٦٢٤ هـ وسمعت من والدها جزأين ، ومن أبي عبد الله الحسين الزبيدي مسند الشافعي ، وصحيح البخاري ، وحدثت بدمشق ومصر ، وهي آخر من حدث بالمسند بالسماع ، وحدث عنها أحمد بن علي بن أبي بكر الصالحي والذهبي وابن ابي المجد ، وسمع عليها فخر بن محمد بن حميد محاسن النيربي صحيح البخاري ، وقرأ عليها علي بن يعقوب الشافعي الفقيه مسند الشافعي لما قدمت القاهرة . وحدث عنها شمس الدين محمود بن خليفة بن خلف المنبجي، وروى عنها شمس الدين محمد بن علي الخشاب ، وسمع وقرأ عليها محمد الواني ثلاثيات صحيح البخاري وكتاب التوحيد من صحيح البخاري وجميع صحيح البخاري ، والجزء الخامس من فوائد عبد الرحمن بن عمر بن نصر الدمشقي بسماعها من أبيها ، وجزءا فيه اثنا عشر حديثا من مسند الشافعي بسماعها من الحسين الزبيدي ... وخرج عنها كتاب بغية الملتمس في سباعيات مالك بن أنس تخريج صلاح الدين العلائي . وتوفيت في شعبان فجأة سنة ٧١٦ هـ »[1] .

---

(١) اعلام النساء ، صفحة ١٧٣ من الجزء الثاني ، ولاحظ عدد العلماء والمحدثين الذين تتلمذوا عليها ، وأخذوا منها .

بعد هذا كله ، كيف تقول « مثقفة تدعي المنهج العلمي » إن تعليم المرأة المسلمة كان بدعة وضلالة ؟ ولو رجعت الى مصدر واحد فقط مما ذكرنا ، لما قالت ما قالته ، وهي تظنه حقيقة تدين به الاسلام . ولا ندري •• لعلها لم تسمع بها . وإلاّ فبماذا نفسر عدم معرفتها آلاف النساء المسلمات العالمات ؟!!

ثم قالت : « البهي وأمثاله ، بمنطقهم في تخصيص المرأة ببعض العلوم والأعمال حفاظاً على أنوثتها ، أبعد ما يكونون عن الصدق والواقعية ، وإن المرء يتساءل : أيهما أخطر على أنوثة المرأة : الاشتغال بالعلوم والصيدلة والكيمياء ، أم الاشتغال بحرث الارض ونقل الطمي والسباخ على رأسها ؟ » •

البهي وأمثاله اذا خصصوا المرأة ببعض العلوم ، لم يقولوا بأن تعمل المرأة بنقل الطمي والسباخ ، واذا هي عملت مع زوجها مشاركة منها انطلاقا من مبدأ المساواة التي ينادون بها ، فلا شيء في ذلك •

هذا •• وأثبتت الأنثى المسلمة في المجتمع الحالي نجاحا باشتغالها بالعلوم ، وبالصيدلة ، وبالكيمياء ، والطبابة ، وبتربية الجيل في مدارس افتتحتها •• يتوج ذلك جو من الطهر والعفة ، والعمل بلا ميوعة أو اختلاط يسوّغ الأذى ويفسد المجتمع •

وقالت : « القرآن أعلن بنصوص صريحة تفضيل الرجال على النساء » (الرجال قوامون على النساء ••) ، وامتدت الأفضلية عند المفسرين الى الثواب عند الله . فقرروا نقصان ثواب النساء في العبادات لفوات مدة الحيض » •

إذا كانت المؤسسات الأخرى الأقل شأنا وخطراً من الاسرة ، والأرخص سعراً ، كالمؤسسات المالية والصناعية والتجارية وما اليها •• لا يوكل أمرها عادة إلا لأكفأ المرشحين لها ، ممن تخصصوا في هذا الفرع علميا ، ودربوا عليه عملياً ، فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للادارة •

المرأة زودت ـ فيما زودت به من الخصائص ـ بالرقة والعطف ، وسرعة

الانفعال . والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة بغير وعي ولا سابق تفكير ، وهذه الخصائص ليست سطحية ، بل هي غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة ، بل يقول كبار العلماء المختصين : إنها غائرة في تكوين كل خلية ، لأنها عميقة في تكوين الخلية الأولى ، التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين، بكل خصائصه الاساسية .

وكذلك زود الرجل ـ فيما زود به من الخصائص ـ بالخشونة والصلابة ، وبطء الانفعال والاستجابة ، واستخدام الوعي والتفكير قبل الحركة والاستجابة، لأن وظائفه كلها تحتاج الى قدر من التروي قبل الاقدام واعمال الفكر والبطء في الاستجابة بوجه عام ، وكلها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها[1].

فالقوامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد ، ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات ، ولها أسبابها من العدالة في التوزيع من ناحية ، وتكليف كل شطر ، في هذا التوزيع ، بالجانب الميسر له ، والذي هو معان عليه من الفطرة .

ومن دلائل الفطرة الطبيعية لقوامة الرجل ، شعور المرأة بالحرمان والنقص والقلق وقلة السعادة ، عندما تعيش مع رجل لا يزاول مهام القوامة ، وتنقصه صفاتها اللازمة ، فيوكل اليها القوامة ، وهي حقيقة ملحوظة تسلم بها حتى المنحرفات الخابطات في الظلام ، وقد جاء في تقرير القاضية السويدية (بريجيدا) النص الحرفي : « فالرجل السويدي قد حرم نهائيا من سعادة مسؤولية رعاية الاسرة والقوامة عليها ، وحمل أعباء البيت ... » والنتيجة ـ كما اكتشفت بريجيدا ـ على مستوى الأمة حقائق مذهلة حقا ..

وإن الأطفال الذين ينشؤون في مؤسسة عائلية القوامة فيها ليست للأب ، إما لأنه ضعيف الشخصية بحيث تبرز عليه شخصية الأم وتسيطر ، واما لأنه

(١) راجع لتفصيل هذه الافكار والتوسع بها تفسير سورة النساء للمرحوم سيد قطب ، الجزء الثاني ، ص : ٣٠٠ وما بعدها .

مفقود لوفاته ، أو لعدم وجود أب شرعي؛ قلما ينشؤون أسوياء ، وقل ألا ينحرفوا الى شذوذ ما في تكوينهم العصبي والنفسي . وفي سلوكهم العملي والخلقي .

فالقوامة للرجل وظيفة داخل كيان الأسرة ، لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة وصيانتها وحمايتها ، ووجود القيّم في مؤسسة ما ، لا يلغي وجود وحقوق الشركاء فيها ، والعاملين في وظائفها ، فقد حدد الاسلام صفة قوامة الرجل وما يصاحبها من عطف ورعاية ، وصيانة وحماية ، وتكاليف في نفسه وماله. وآداب في سلوكه مع زوجه وعياله .

هذا .. ولقد منح الاسلام المرأة الحق في اختيار زوجها ، وبهذا فهي تختار القيم عليها ، ولها كل الحق أن تلاحظ فيه المقدرة على القوامة الرشيدة . والاسلام بذلك أعفى المرأة وأراحها من الأعباء المالية ، فحقوق الأبناء والزوجة جعلها في ذمة الرجل ، وفي هذا قدر كبير من التكريم لها ، برفع المسؤولية عن كاهلها !

ونستنتج مما سبق حكمة الاسلام ، فنقول : القوامة : تنظيم لمؤسسة الأسرة ، وضبط دقيق لأمورها ، وهي توزيع الاختصاصات . وتحديد الواجبات، بجوٍّ من الايمان والألفة والمحبة والاكرام . فالقوامة مسؤولية على عاتق الرجل « وكل راع مسؤول ــ أمام الله ــ عن رعيته » .

أما القول بنقصان ثواب النساء في العبادات ، فهذا مرفوض قطعاً ومدحوض بنص الآية الكريمة : « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض[1] » .

وأقر الفقهاء المساواة في حقوق الأجر والثواب عند الله . كما أقروا لها حقوق الدنيا في التملك والارث ، وفي الاستقلال بشخصيتها المدنية .

وقالت المهاجمة : « حرية اختيار الزوج في الاسلام زائفة » واختلفت المذاهب حول تزويج المرأة نفسها .

(١) سورة آل عمران ، الاية الكريمة : ١٩٥ .

ونبدأ بالرد من الجملة الأخيرة ، إن اختلفت المذاهب حول تزويج المرأة نفسها ، فمنها من قال بعدم الأحقية ، ومنها من قال بالأحقية ، فلتأخذ هي بسن سمح لها بتزويج نفسها أمام القاضي بعد بلوغها سن الرشد ، إن رفض وليها تزويجها ووقع بما نهى الله عنه ، وهو « الاعضال »[1] .

قال الأحناف : وينعقد نكاح العاقلة البالغة برضاها إن لم يعقد عليها ولي . بكراً كانت أو ثيباً ، وهذا عند أبي حنيفة وأبي يوسف ، ووجه الجواز أنهاتصرفت في خالص حقها وهي من أهله ، لكونها عاقلة مميزة ، ولهذا كان لها التصرف في المال ، ولها اختيار الزوج .

وقالوا أيضاً : لا يجوز للولي اجبار البكر البالغة على النكاح ، ووجه عدم الجواز أنها عاقلة .. فلا يكون للغير عليها ولاية الاجبار .

وإذا استأذنها الولي فسكتت أو ضحكت فهو إذن وقبول ، لقوله عليه الصلاة والسلام: « البكر تستأمر في نفسها ، فان سكتت فقد رضيت ». والضحك أدل على الرضا من السكوت ، بخلاف ما اذا بكت ، لأنه دليل السخط والكراهية .

ولو استأمرها غير الولي أو ولي غيره أولى منه ، لم يكن رضا حتى تتكلم به ، لأن هذا السكوت لقلة الالتفات الى كلامه ، فلم يقع دلالة على الرضا .

وقالوا أيضاً : يذكر لها في الاستشار اسم الزوج « على وجه تقع به المعرفة »[2] . فلها الحق ، كل الحق ، بالقبول أو الرفض ، وهذا اختيار بكل مافي الكلمة من معنى . يحق لها الرفض ثم الرفض يتلوه الرفض إلى أن تجد ماينا سبها فتقبل به زوجاً لها ، وشريكاً لعمرها .

---

(١) وفي المذهب الشافعي كما عند الاحناف . اذا ثبت اعضال الولي ـ أي رفضه تزويجها لكفء تقدم اليها ـ يحق للقاضي أن يزوجها دون اذن وليها . ورأي الولي في الاسلام هدفه ايجاد الكفء للابنة لياقة ، وامكانات ، وكسبا ، وكفاية ، وسمعة ، وخلقا .. ـ لان اسم الزوج سيقترن باسم العائلة ، فقد تحب ابنته ماجنا ، قليل المروءة ، لا عمل له ولا كسب ، عنا يرفض ، لان ابنته حكمت العاطفة ، وهي عابرة ونزوة تنتهي ، وهو يحكم العقل لفلذة كبده ، بما يناسب سعادتها . « راجع فتح الباري باب الولي والنكاح » .

(٢) كتاب « الهداية » .

عن أبي هريرة ، قال قال رسول الله ﷺ : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن ، قالوا : يا رسول الله وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت » رواه الجماعة .

وعن ابن عباس أن جارية بكراً أتت رسول الله ﷺ . فذكرت أن أباها زوجها وهي كارهة، فخيَّرها النبي ﷺ . رواه أحمد وابو داوود وابن ماجه والدارقطني.

وقال الامام الشوكاني في نيل الأوطار : « إن البكر البالغة إذا زوجت بغير إذنها لم يصح العقد . واليه ذهب الأوزاعي والثوري والأحناف . وحكاه الترمذي على أكثر أهل العلم » .

وقال أيضاً : « الظاهر أن استئذان الثيب والبكر شرط في صحة العقد ، لرده ﷺ نكاح خنساء بنت خدام وهو : عن خنساء بنت خدام الأنصارية أن أباها زوجها وهي ثيب . فكرهت ذلك . فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها » .

وإن اختلاف الفقهاء في تزويج المرأة ليس عيباً أو نقصاً . إن الناس يختلفون في واقعهم وبيئتهم . فإن تعددت الأقوال في موضوع . فلكل أن يأخذ بحسبه ، وهذا يسر للناس .

وأخيراً .. كررت الكاتبة التي لم تطلع على الإسلام إطلاعها على مذهبها المادي الذي تدعو إليه كررت عبارات : الاطار التقليدي للايديولوجيا الاسلامية، والتقاليد العتيقة . الوأد الاجتماعي للمرأة . وحقوق المرأة حبر على ورق ...

ونحن نقول : إن كانت التقاليد لا تمت الى العقل والمنطق والعلم والـدين بصلة . فنحن نقول بتركها . والابتعاد عنها . أما إذا كانت تحقق سعادة الأسرة ولو كانت قديمة فنحن أكثر الناس تمسكاً بها لصلاحها . فليس كل قديم يُنْبَذ ، وليس كل جديد يؤخذ .

والوأد المادي أو الاجتماعي اليوم .. تقرير لبعض المشاهدات السطحية . وهو واقع لا يرضاه الاسلام . وما دعا إليه . وما يحسب على الاسلام . هو الذي

ينشأ وفق أحكامه وأطره وبرامجه وموازينه . والخارج عن هذا . لا يجوز أن يحسب منه ، لأنه انحراف عنه •

ولو عاشت المرأة ضمن اطار الحقوق المعطاة لها في الاسلام ، لضمنت حريتها الحقيقية ، وسعادتها المنشودة . وبالتالي سعادة الأسرة التي ترعاها ، وسعادة المجتمع كله . ولما كانت حبراً على ورق كما توهمت الكاتبة •

إن الانفلات من تنظيم الحياة والأسرة الى كلمة « حرية » ، و « تحرير المرأة » ، انفلات نحو تحقيق رغبات جنسية آنية لا يدري إلا العقلاء نتائجها الاجتماعية السيئة . وقد جعلنا في بداية البحث (أرقى) دول العالم في حريتها الممنوحة للمرأة دليلا للعقول الموضوعية على أن الحرية الممنوحة قد خربت المجتمع وبات يشكو من أمراضه ومشكلاته التي نتجت عن هذه الحرية !!

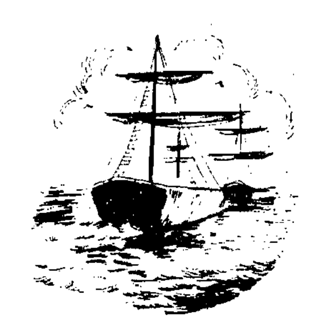
إن المرأة المسلمة مكرمة . في ظل الاسلام : « فالجنة تحت أقدام الأمهات » ، وانتقل النبي الكريم الى الرفيق الأعلى وهو يوصي بها وباكرامها • وهي ليست هدفاً لتحقيق الاتصال الجنسي . إنها في عرف الإسلام مهيأة الى هدف أبعد ، هو الارتباط الدائم بأسرة يتم فيها اعداد الطفل ، الذي هو رجل المستقبل ، وتزويده برصيد من التجارب والمعارف والأخلاق الانسانية ، تؤهله لبناء مجتمع فاضل . مرتسمة فيه سبل الترقي الدائم. عن طريق الأجيال الفاضلة المتعاقبة •

وإن هؤلاء المنهزمين أمام الأفكار المعادية للاسلام ، هم بحاجة ماسة الى أن يلتفتوا الى الاسلام ومدلولاته . لا أن يكتفوا ببناء أفكارهم على أسس من المبادىء المعادية • هذا إذا كانوا مخلصين حقاً في دعوتهم الى سعادة المرأة ، والتحليق بالمجتمع الى منتهى سعادته . على جناحين : الرجل والمرأة •

أما اكتفاؤهم بترداد ما يسمعون . واختراع النتائج من خلال المقدمات الخاطئة ، فهذا إفك مفترى على أنفسهم قبل مجتمعهم ، وتحقير للفكر البشري عامة قبل احتقار أفكارهم •

إن كلمة الله . وسنة الله التي خلت في عباده هي الأساس ، وكل نكوص عنها، أو ارتداد ، يعني فراغاً وضياعاً دونه ضياع مجتمع • وفي تقرير القاضيةالسويدية الباحثة عن السعادة ، ما يثبت ذلك •

إنه الاسلام ، به وحده سعادة البشر ، وبتعاليمه كان وسيكون انتصار الحضارة ، واكتمال الأمن والشعور بالاستقرار والهناءة • والعالم اليوم يشعر بالحاجة الى منقذ مُخَلِّص ، وإنه لموجود •• خلص الانسان ــ عندما طُبِّق ــ من جور الانسان ، وعبادة الانسان للانسان ، الى عبادة رب الانسان الذي أراد الخير والسعادة المطلقة للناس أجمعين ، ولا عجب •• أفينكر أب أو رب أسرة سعادة أبنائه !؟ ومما لا شك فيه أن رب الناس يحب لهم هذه السعادة ، وقد وضعها لهم بتعاليم سامية ختمها الاسلام ، وقد جربه العالم يوما ، فهل الى عودة اليه من سبيل ؟!



خاتمة

مسلم اليوم بين الانتصار والهزيمة

✶ « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها . وما أنا عليكم بحفيظ * وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون » .

« الانعام : ١٠٤ و ١٠٥ »

إنّ إسلام المسلم الملتزم بشريعة الله عز وجل ، إسلام منتصر لا ريب ، ولكن قد نجد من المسلمين من يأخذ جانباً ، ويغفل جوانب أخرى ، إما جهلاً وإما تناسياً ، وتراه ينهزم في مواقف معينة ، حين تتغلّب أهواؤه وشهواته عليه .

من المسلمين اليوم من يدّعي التمسّك بالاسلام ، ويدّعي الوقوف عند حدوده ، ونراه في الوقت ذاته يخلط عملاً حسناً بآخر سيء ، وقد ترجح سيئاته على حسناته ، هذا مسلم شيطانه منتصر عليه ، ونفسه الأمارة بالسوء منتصرة ، وأهواؤه منتصرة ، ومصلحته الشخصية ولو خالفت شرع الله هي الراجحة المنتصرة .

فإن قيل : « الإسلام منهزم » ، فهذا يعني إسلام أمثال من وصفنا من مسلمي اليوم ، الذين يحسلون من الاسلام اسمه ، وتتحكم بهم مصالحهم الخاصة ، لضعف إيمانهم ، أو لموته ، إما لضحالة فكرهم الاسلامي ، واما لعدم تفاعلهم مع إسلامهم . أما الاسلام الكامل ، فالاسلام منتصر في كل زمن لا محالة .

مسلم إسلامه علم وثقافة واسعة ، إسلامه منتصر ، ومسلم جاهل إسلامه منهزم .

مسلم إسلامه جهاد ، وتحمل ، وصبر ، إسلامه منتصر •

مسلم إسلامه سعي ، ودعوة ، وسهر للارشاد •• إسلامه منتصر ، ومسلم إسلامه راحة ، « وشاي أخضر » ، وكسل •• إسلامه منهزم •

مسلم إسلامه أخذ بالأسباب ، إسلامه منتصر ، وإسلام التواكل منهزم •

مسلم يسعى الى تصنيع ، وبناء ، ورخاء ، وتضامن ، إسلامه منتصر ، وإسلام الطائفية أو الفرقة ، أو إسلام التباعد والتجافي والتعصب إسلام منهزم •

مسلم يحقق عملياً بقدر جهده : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » إسلامه منتصر ، إسلام الانفتاح الذي ينتهج ما اصطلح العلماء على تسميته « القاعدة الذهبية » : نلتقي على ما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضاً بما اختلفنا فيه ، إسلامه منتصر ، أما إسلام التحزّب ، إسلام العشائرية ، إسلام القبلية •• فهو حتماً إسلام منهزم •

إسلام اقفال باب الاجتهاد ، إسلام منهزم في أمور حياتية كثيرة ، واسلام الاجتهاد واستنباط الحلول الاسلامية المناسبة لما يطرأ من مشكلات ، إسلام منتصر •

مسلم تكمن حقيقة الايمان فيه، متفاعل مع الاسلام ، إسلامه منتصر، ومسلم فاقد اللباب واجد القشور ، إسلامه منهزم •

مسلم يقدم الردود العاطفية غير المدروسة ، ويرمي من يخالفه بالكفر أو بالفسق والزندقة ، إسلامه منهزم . كما أن الردود العلمية العقلانية ، المنطقية المدروسة منتصرة •

المسلم الذي يرى العاصي المذنب المقصر مريضاً ، فهو له طبيب مداو ، إسلامه منتصر ، والمسلم الذي يُنَصِّب نفسه « قاضياً » : هذا عاص ، وذاك فاسق •• إسلامه منهزم •

مسلم فيه جفاء وقسوة مع من يختلف معهم في الرأي ، بل وتعصب لرأيه ولو بدت حقيقة تخالفه ، إسلامه منهزم ، كما أن إسلام التودد واللين والتحبب والانصياع للحق والحقيقة إسلام منتصر .

مسلم الحكمة ضالته ، إسلامه منتصر ، ومسلم يحب الباطل وأهله ، إسلامه منهــزم .

مسلم أهل لتحمل المسؤوليات إسلامه منتصر ، ومسلم منزوٍ متقوقع إسلامه منهــزم .

مسلم تخضع جبهته لله وحده وتعلو عمن سواه ، إسلامه منتصر ، يد من يديه مع الله ، ويده الأخرى مع المؤمنين العاملين ، إسلامه منتصر ، مسلم يد مع الباطل ، وأخرى مع الشيطان إسلامه منهزم .

مسلم ورع عن الحرام ومواطن الشبه والاتهام ، إسلامه منتصر ، ومسلم يأكل أموال الناس بالباطل إسلامه منهزم .

مسلم يأمن الناس بوائقه ، إسلامه منتصر ، ومسلم لا يأمنه الناس على درهم إسلامه منهزم .

مسلم إن حَجّ حَجّ إلى الله ، يطوف جسده بالبيت ، وتطوف روحه عند ربّ البيت ، إسلامه منتصر ، مسلم يذهب إلى الحج بأخلاق حسنة ، ويرجــع بأخلاق أحسن ، يذهب بأخلاق فاضلة ، ويؤوب بأخلاق أفضل ، إسلامه منتصر ، ومسلم لا يعرف من الحج إلا مناظر السفر ، ولا يتأثر هناك بمشاهد وروحانيــة الحج ، إسلامه منهزم .

مسلم عاقل حكيم ، إسلامه منتصر ، ومسلم أحمق أهوج لا يقدر عواقب الأمور ، إسلامه منهزم .

مسلم لا يعرف من التربية الروحية إلا الشطحات ، أو الجمود والتزمت

إسلامه منهزم ، ومسلم يجعل أحكام الشريعة ميزاناً لكل فكرة أو تصرف يقدم عليه . إسلامه منتصر •

مسلم صلاته ميتة لا تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، إسلامه منهزم ، ومسلم صلاته معراج الى الله ، كلها خشوع وقرب ، إسلامه منتصر •

مسلم يتقن الدعاء ولا يتقن العمل إسلامه منهزم ، ومسلم يتقن العمل ثم يتقن الدعاء إسلامه منتصر •

مسلم يتعهد طفله تربية وخلقا •• إسلامه منتصر في داره ، ومسلم لا يبالي ، بل ولا يدري ماذا يدس في ذهن ابنه ، أو ماذا يلقن من مبادىء ضالة فاسدة ، إسلامه منهزم ، وأسرته ضائعة مفككة •

مسلم يحترم حامل العلم ، العالم العامل ، ويقدر جهوده وانتاجه معنى ومادة ، إسلامه منتصر . ومسلم يعرف حق الخياط والخباز والحلاق •• ولا يعرف قدر العالم وحقه . إسلامه منهزم •

مسلم يحقق : « إنما المؤمنون إخوة » ويصلح ذات البين ، إسلامه منتصر ، ومسلم يفرق ولا يجمع ، ولا يهمه صفاء القلوب ، وجمع الشمل ، ووحدة الكلمة ، إسلامه منهزم •

مسلم يحمل إسلام الاحترام المتبادل ، ولو وجد اختلاف على رأي أو أكثر في طريق الحق ، إسلامه منتصر ، ومسلم يحمل إسلام التنافر والبغضاء ، والغيرة والحسد ، والطعن والشتيمة والافك أحياناً ، مسلم إسلامه منهزم •

مسلم يجعل من العروبة ديناً منهزم ، ومن يقر بالاسلام عقيدة فهو المنتصر ، ومسلم يفتعل معارك هامشية بين العروبة والاسلام ، إسلامه منهزم وعروبته منهزمة ، ومسلم يحب العروبة لأن النبي ﷺ عربي ، والقرآن العظيم عربي . ولسان أهل الجنة عربي ، إسلامه منتصر •

مسلم إن أخطأ لامته نفسه ، وشعر بلذعة المعصية فتاب ، إسلامه منتصر ، ومسلم يخطىء ثم يخطىء •• ولا توبة أو استغفار •• إسلامه منهزم •

مسلم فقير بسبب ترك السعي والجد ، وبسبب حب الكسل والتقاعس ، إسلامه منهزم ، ومسلم غني بسبب السعي والكسب ، يملك المال ولا يملكه المال ، إسلامه منتصر •

مسلم يسعى لبناء مسجد وتزيينه بالقطع النفيسة ، مسلم يبني مستشفى فقط ، ومسلم يبني مسجدا ويهيىء له العالم المرشد ، المربي المزكي ، مسلم إسلامه مثمر منتصر • إن أنفق على بناء مسجد مليون ليرة ، ما أحوجه الى أن ينفق مثل ذلك على رجل ليؤهله روحاً وعلماً ، قلباً وحياة ، ليحيي به حيّاً أو بلدة ، أو أمة •

ويطول الحديث •• ويمكن تلخيصه :

المسلم العالم باسلامه ، نفسه مزكاة ، روحه زاخرة بالايمان ، يعرض تصرفاته وحياته على شرع الله ، فهواه مع الشرع ، يحب ما أحب ، ويبغض ما أبغض ، وقّافاً عند حدوده ، داعياً إليه •• فهو حجة للاسلام وليس حجة عليه ، هذا مسلم إسلامه منتصر ، وخلاف ذلك مسلم إسلامه منهزم •

هذه هي أهم هزائمنا عبر التاريخ ، فهل من متعظ ؟! إن التاريخ ذاكرة البشرية ، والحاضر وليد الماضي ، والتاريخ مدرسة عظيمة للطبائع البشرية ، فهو عبرة بحق ، لانه مجموعة اختبار البشرية المسجل في جميع الأعصر ، انه مدرسة عظيمة للحذر ، ومدرسة عظيمة للاتباع وربط الاسباب بنتائجها ، والنتائج بالاسباب ، ففيه وجهات نظر ايجابية تتبع ، وفيه تجارب سلبية تجتنب :

من لم يع التاريخ في صدره — لم يدر حلو العيش من مره
ومن وعى أخبار من قد مضى — أضاف أعمارا الى عمره

قال عز وجل في نهاية سورة الصافات :

((ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، انهم لهم المنصورون ، وان جندنا لهم الغالبون ، فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون ، أفبعذابنا يستعجلون ، فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ، وتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين)) •

صدق الله العظيم

المَراجع

١ ــ البداية والنهاية ، الحافظ ابن كثير « ط ٢ ، ١٩٧٤ » ، مكتبة دار المعارف « بيروت » .

٢ ــ أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام ، عمر رضا كحالة ، المطبعة الهاشمية بدمشق .

٣ ــ الأعلام ، خير الدين الزركلي ، ط : ٣ .

٤ ــ الاسلام والعرب ، روم لاندو .

٥ ــ تاريخ الطبري ، لابن جرير الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، طبعة : دار المعارف بمصر (١٩٦٦) .

٦ ــ تاريخ الاسلام ، د. حسن ابراهيم حسن (ط ٦ ، ١٩٦٢) ، مكتبة النهضة المصرية .

٧ ــ تاريخ بغداد « مدينة السلام » للحافظ أبي بكر بن أحمد بن علي الخطيب البغدادي . دار الكتاب العربي ــ بيروت .

٨ ــ تاريخ الخلفاء ، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، ط : ٤ ، ١٣٨٩/١٩٦٩ ..

٩ ــ التاريخ الأندلسي ، د. عبد الرحمن الحجي ، ط : ١ ، دار القلم .

١٠ ــ تاريخ الأمم الاسلامية ، الشيخ محمد الخضري ، ط : ٨ ، سنة : ١٣٨٢هـ ، المكتبة التجارية الكبرى .

١١ ـ التفسير الاشتراكي للتاريخ ، د. راشد براوي . نشر دار النهضة العربية، ط : ٢ سنة ١٩٦٨ .

١٢ ـ حضارة العرب ، د. غوستاف لوبون ، ترجمة زعيتر .

١٣ ـ حياة الصحابة ، محمد يوسف الكاندهلوي ، طبعة دار الفكر .

١٤ ـ ديوان المبتدأ والخبر .. « تاريخ ابن خلدون » ، طبعة دار البيان المصورة في سبعة أجزاء مع المقدمة .

١٥ ـ الدولة الأموية ، د. يوسف العش . طبع عام ١٩٦٥ .

١٦ ـ عبر وعبرات من دمشق الأندلس ، جواد المرابط ، دار العربية ، بيروت .

١٧ ـ السيرة النبوية لابن هشام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، طبعة دار الجيل ، بيروت ، عام ١٩٧٥ .

١٨ ـ السيرة الحلبية « إنسان العيون » ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، طبعة عام ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م.

١٩ ـ صور من حياة الرسول ، أمين دويدار ، طبعة دار المعارف بمصر .

٢٠ ـ فتوح البلدان ، للامام أبي الحسن البلاذري ، مراجعة رضوان محمد رضوان .

٢١ ـ فجر الأندلس ، د. حسين مؤنس ، ط : ١ ، عام ١٩٥٩ ، نشر : الشركة العربية للطباعة والنشر .

٢٢ ـ في ظلال القرآن ، للمرحوم سيد قطب .

٢٣ ـ الكامل في التاريخ ، لابن الأثير الجزري . إدارة المطبعة المنيرية بمصر ، طبعة عام : ١٣٤٨ هـ .

٢٤ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، لأبي الحسن بن الحسين بن علي

المسعودي • تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد • نشر : دار الفكر :
ط : د ، عام : ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م •

٢٥ ـ مسند الامام أحمد بن حنبل • نشر دار صادر ، « بيروت » •

٢٦ ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي « لزامباور » ، مطبعة جامعة فؤاد الاول ، عام : ١٩٥١ •

٢٧ ـ معجم البلدان ، لياقوت الحموي ، دار المستشرق « بيروت » •

٢٨ ـ الملل والنحل ، للشهرستاني ، تحقيق محمد سعيد كيلاني ، طبعة البابي الحلبي بمصر عام : ١٩٦١ •

٢٩ ـ المغرب عبر التاريخ ، ابراهيم حركات ، نشر دار السلمى بالدار البيضاء ، ط : ١ ، عام ١٩٦٥ •

٣٠ ـ مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، محمد عبد الله عنان ، ط : ٤ •

٣١ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، الشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، نشر : دار الكتاب العربي « بيروت » •

٣٢ ـ النجوم الزاهرة ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ، طبعة دار الكتاب المصرية عام ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م •

٣٣ ـ الوفا بأحوال المصطفى ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، نشر دار الكتب الحديثة ، عام : ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م • الطبعة الأولى •

« مع مراجع أخرى ذكرت في حينها في هوامش الكتاب » •

* * *

المحتوى



كتب للمؤلف :

★ **صدر من سلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الاسلام » :**

١ ـ القادسية	بقيادة سعد بن أبي وقاص
٢ ـ اليرموك	بقيادة خالد بن الوليد
٣ ـ نهاوند « فتح الفتوح »	بقيادة النعمان بن مقرن المزني
٤ ـ ذات الصواري « اليرموك البحرية »	بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح
٥ ـ فتح الاندلس « معركة وادي لكة »	بقيادة طارق بن زياد
٦ ـ بلاط الشهداء « بواتييه »	بقيادة عبد الرحمن الغافقي
٧ ـ فتح صقلية « وكمين باب الشيزري ـ ممر رونسفال ـ »	بقيادة أسد بن الفرات
٨ ـ الزلاقة	بقيادة يوسف بن تاشفين
٩ ـ الأرك	بقيادة يعقوب المنصور الموحدي
١٠ ـ العقاب	بقيادة محمد الناصر بن يعقوب المنصور
١١ ـ مصرع غرناطة	« أبو عبدالله الصغير آخر ملوك بني الاحمر »

* * *

الانسان بين العلم والدين	الطبعة الثالثة
الاسلام فوق الاتهام	الطبعة الرابعة
غريزة ٠٠ أم تقدير إلهي ؟	الطبعة الثانية
من ضيع القرآن ؟	الطبعة الأولى

الاسلام وحركات التحرر العربية	الطبعة الثانية
آراء يهدمها الاسلام	الطبعة الاولى
هارون الرشيد	الطبعة الأولى
عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الاسلامي	الطبعة الأولى

* * *

تطلب من دار الفكر بدمشق

ص٠ب : ٩٦٢

هاتف : ١١١٠٤١



الهزيمة أمام المبادئ الدخيلة أقسى وأمرّ من الهزيمة العسكرية، بل هي أبعد أثراً من الهزيمة العسكرية، لأن الهزيمة العسكرية قد تبقي على كيان الأمة، أما الانهزام الفكري فمعناه بدء النهاية للأمة كلها

